هذه قصة التاجر علي نور الدين المصري
وما جرى له مع جاريته مريم
الزنارية بنت ملك أفرنجه
وما فيها من العجائب
على التمام

﴿طبع﴾
﴿بالمطبعة العامرة الشرفيه﴾
﴿سنة ١٣١٤ هجريه﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

(ومما يحكى) انه كان فى قديم الزمان وسالف العصر والاوان رجل تاجر بالديار المصرية يسمى تاج الدين وكان من أكابر التجار ومن الامناء الاحرار الا انه كان مولعا بالسفر الى جميع الاقطار ويحب السير فى البرارى والقفار والسهول والاوعار وجزائر البحار فى طلب الدرهم والدينار وكان له عبيد ومماليك وخدم وجوارى وطالما ركب الأخطار وقاسى فى السفر ما يشيب الاطفال الصغار وكان أكثر التجار فى ذلك الزمان مالا واحسنهم مقالا صاحب خيول وبغال وبخاتى وجمال وغرائر وأعدال وبضائع وأموال واقمشة عديمة المثال من شدود حمصية وثياب بعلبكية ومقاطع سندسية وثياب مروزية وتفاصيل هندية وأزرار بغدادية وبرانس مغربية ومماليك تركية وخدم حبشية وجوارى رومية وغلمان مصرية وكانت غرائر أحماله من الحرير لانه كان كثير الاموال بديع الجمال مائس الاعطاف شهى الانعطاف كما قال فيه بعض واصفيه

وتاجر عاين عشاقه * والحرب فيما بينهم ثائر
فقال ما للناس فى ضجة * قلت على عينيك يا تاجر

(وقال آخر فى وصفه وأجاد وأتى فيه بالمراد)

وتاجر فى وصله زارنا * والقلب من ألحاظه حائر
فقال لى مالك فى حيرة * قلت على عينيك يا تاجر

وكان لذلك التاجر ولد ذكر يسمى عليا نور الدين كأنه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر بديع الحسن والجمال ظريف القد والاعتدال فجلس ذلك الصبى يوما من الايام فى دكان والده على جرى عادته للبيع والشراء والاخذ والعطاء وقد دارت حوله أولاد التجار فصار بينهم كأنه القمر بين النجوم بجبين أزهر وخد أحمر وعذار أخضر وجسم كأنه المرمر * كما قال الشاعر

ومليح قال صفنى * أنت فى الوصف رجيح قلت قولا باختصار * كل ما فيك مليح

(وكما قال فيه بعض واصفيه)

له خال على صفحات خد * كنقطة عنبر فى صحن مرمر
وألحاظ بأسياف تنادى * على عاصى الهوى الله أكبر

فعزمه أولاد التجار وقالوا له يا سيدى على نور الدين نشتهى فى هذا اليوم اننا نتفرج نحن واياك فى البستان الفلانى فقال لهم حتى أشاور والدى فانى لا أقدر أن أذهب الا

باجازته فبينما هم فى الكلام واذا بوالده تاج الدين قد أتى فنظر اليه ولده وقال يا أبت
ان أولاد التجار قد عزمونى لاجل أن أتفرج معهم فى البستان الفلانى فهل تأذن لى فى
ذلك فقال نعم يا ولدى ثم انه أعطاه شيأ من المال وقال توجه معهم فركب أولاد التجار
حميرا وبغالا وركب على نور الدين بغلة وسار معهم الى بستان فيه ما تشتهيه الانفس وتلذ
الاعين وهو مشيد الاركان رفيع البنيان له باب مقنطر كانه ايوان وباب سماوى يشبه
أبواب الجنان وبوابه اسمه رضوان وفوقه مائة مكعب عنب من سائر الالوان الاحمر كانه
مرجان والاسود كانه أنوف السودان والابيض كانه بيض الحمام وفيه الخوخ والرمان
والكمثرى والبرقوق والتفاح كل هذه الانواع مختلفة الالوان صنوان وغير صنوان
كما قال فيه الشاعر

عنب طعمه كطعم الشراب * حالك لونه كلون الغراب
بين أوراقه زها فتراه * كبنان النساء بين الخضاب

وكما قال فيه الشاعر أيضا

عناقيد حكت لما تدلت * على قضبانها جسمى نحولا
حكت عسلا وماء فى اناء * وعادت بعد حصرمها شمولا

ثم انتهوا الى عريشة البستان فرأوا رضوان بواب البستان جالسا فى تلك العريشة كانه
رضوان خازن الجنان ورأوه مكتوبا على باب العريشة هذه البيتين

سقى الله بستانا تدلت قطوفه * فمالت بها الاغصان من شدة الشرب
اذا رقصت أغصانه بيد الصبا * تنقطها الانواء باللؤلؤ الرطب

ورأوا مكتوبا فى داخل العريشة هذين البيتين

ادخل بنا يا صاح فى روضة * تجلو عن القلب صدا همه
نسيمها يعثر فى ذيله * وزهرها يضحك فى كمه

وفى ذلك البستان فواكه ذوات أفنان وأطيار من جميع الاصناف والالوان مثل
فاختة وبلبل وكروان وقمرى وحمام يغرد على الاغصان وأنهارها بها الماء الجارى وقد
راقت تلك المجارى بازهار وأثمار ذات لذات كما قال فيه الشاعر

سرت النسيم على الغصون فشابهت * خوداء تعثر فى جميل ثيابها
وحكت جداولها السيوف اذا انتضت * أيدى الفوارس من غلاف قرابها

وكما قال فيه الشاعر أيضا

والنهر مد على الغصون ولم يزل * أبدا يمثل شخصها فى قلبه
حتى اذا فطن النسيم سرى لها * من غيرة فأمالها من قربه

وأشجار ذلك البستان عليها من كل فاكهة زوجان وفيه من الرمان ما يشبه أكر

القيروان كما قال فيه الشاعر

ورمان رقيق القشر يحكي * نهود البكر اذ برزت نحولا
اذا قشرته يبدو لدينا * من الياقوت ما بهر العقولا

{وكما قال فيه الشاعر}

ململمة تبدي لقاصد جوفها * يواقيت حمرا في معاطف عبقري
ورمانة شبهتها اذ رأيتها * بنهد العذارى أو بقبة مرمر
وفيها اشفاء للمريض وصحة * وفيها حديث النبي المطهر
وفيها يقول الله جل جلاله * مقالا اتانا في الكتاب المسطر

وفي ذلك البستان تفاح سكري ومسكي يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تفاحة جمعت لونين قد حكيا * خدي حبيب ومحبوب قد اجتمعا
لاحا على الغصن كالضدين من عجب * فذاك اسود والثاني به لمعا
تعانقا فبدا واش فراعهما * فاحمر ذا خجلا واصفر ذا ولعا

وفي ذلك البستان مشمش لوزي وكافوري وجيلاني وعنابي كما قال فيه الشاعر

والمشمش اللوزي يحكي عاشقا * جاء الحبيب له بخبر ايابه
وكفاه من صفة المتيم ما به * يصفر ظاهره ويكسر قلبه

{وقال فيه آخر وأجاد}

انظر الى المشمش في زهره * حدائق يجلو سناها الحدق
كالانجم الزهر اذا ما زهت * فالغصن يزهو بها في الورق

وفي ذلك البستان برقوق وقراصي وعناب تشفي السقيم من الاوصاب والتين فوق أغصانه ما بين أحمر وأخضر يحير العقول والنواظر كما قال فيه الشاعر

كأنما التين يبدو منه أبيضه * مع أخضر بين أوراق من الشجر
أبناء روم على أعلى القصور وقد * جن الظلام بهم باتوا على حذر

{وقال آخر وأجاد}

أهلا بتين جاءنا * منضد على طبق كسفرة مضمومة * قد جمعت بلا حلق

{وقال آخر وأجاد}

أنعم بتين طاب طعما وا كتسى * حسنا وقارب منظرا من مخبر
يبدي تعاطيه اذا ما ذقته * ريح الاقاح وطيب طعم السكر
ويحكي اذا ما صب في أطباقه * أكراصنعن من الحرير الاخضر

{ وما أحسن قول بعضهم }

قالوا وقد ألفت نفسى تفكهها * بغيرفاكهة فى حبها هاموا
لاى شئ تحب التين قلت لهم * للتين قوم وللجميز أقوام

{ وأحسن منه قول الآخر }

التين يعجبنى عن كل فاكهة * لما استوى والتوى فى غصنه الزاهى
كأنه عابد والصب ماطرة * فاضت مدامعه من خشية الله

وفى ذلك البستان من الكمثرى الطورى والحلبى والرومى ما هو مختلف الالوان صنوان وغير صنوان ما بين أصفر وأخضر يدهش الناظر كما قال فيه الشاعر

تهنيك كمثرى غدا لونها * لون محب زائد الصفره
شبيهة بالبكر فى خدرها * والوجه منها مسبل الستره

وفى ذلك البستان من الخوخ السلطانى ما هو مختلف الالوان من أصفر وأحمر كما قال فيه الشاعر

كأنما الخوخ فى روضة * وقد بدا اخده العندمى
بنادق من ذهب أصفر * قد خضبت وجهها بالدم

وفى ذلك البستان من اللوز الاخضر ما هو شديد الحلاوة يشبه الجمار ولبه من داخل ثلاثة أثواب صنعة الملك الوهاب كما قيل فيه

ثلاثة أثواب على جسد رطب * مخالفة الاشكال من صنعة الرب
تريه الردى فى ليله ونهاره * وان يكن المسجون فيها بلا ذنب

وقال آخر وأجاد أما ترى اللوز حين تظهره * من الافانين كف مقتطف
وقشره قد جلا القلوب لنا * كأنه الدر داخل الصدف

{ وأحسن منه قول الآخر }

يا حسن لوز أخضر * أصغره ملء اليد * كأنما زهوره
نبت عذار الارمد * وقد غدت قلوبه * مزدوجا مع مفرد
كأنها الآلئ * تصان فى زبرجد

{ وقال آخر وأجاد }

ما أبصرت عيناى مثل اللوز ذا * فى حسنه لما بدت أنواره
الرأس منه باشتعال شائب * حين انقشا واخضر منه عذاره

وفى ذلك البستان النبق مختلف الالوان صنوان وغير صنوان كما قال فيه بعض واصفيه هذا الشعر

انظر الى النبق فى الاغصان منتظما * كشمش مجب يزهو على القضب
كان صفرته للناظرين غدت * تحكى جلاجل قد صيغت من الذهب

{وقال آخر واجاد}

وسدرة كل يوم * من حسنها فى فنون كانما النبق فيها * وقد بدا للعيون
جلاجل من نضار * قد علقت فى غصون

وفى ذلك البستان النارنج كانه خولجان كما قال فيه الشاعر الولهان

وحمراء مثل الكف تزهو بحسنها * فظاهرها نار وباطنها ثلج
ومن عجب ثلج مع النار لم يذب * ومن عجب نار وليس لها وهج

{وقال بعضهم واجاد}

واشجارنا رنج كان ثمارها * اذا ما بدت للناظر المتفرس
خدود نساء قد تبرجن زينة * بايام عيد فى غلائل سندس

{وقال آخر واجاد}

كان ربا النارنج اذ هبت الصبا * واضحت به الاغصان وهى تميد
خدود عليها بهجة الحسن اقبلت * عليها باوقات السلام خدود

وقال آخر واجاد وشادن قلت له صف لنا * بستاننا هذا ونارنجنا
فقال لى بستانكم طلعتى * ومن جنى النارنج وردى جنى

وفى ذلك البستان الاترج لونه كلون التبر وقد حط عن اعلى مكان وتدلى فى الاغصان فمالت به وكانه سبائك العقيان وقد قال فيه الشاعر

اما ترى ايكة الاترج مثمرة * يخشى عليها اذا مالت من العطب
كانها عندما مر النسيم بها * غصن تحمل قضبانا من الذهب

وفى ذلك البستان الكباد متدليا فى اغصانه كنهود ابكار تشبه الغزلان وهو على غاية المراد كما قال فيه الشاعر واجاد

وكبادة بين الرياض نظرتها * على غصن رطب كقامة اغيد
اذا ميلتها الريح مالت كاكرة * بدت ذهبا فى صولجان زبرجد

وفى ذلك البستان الليمون ذكى الرائحة يشبه بيض الدجاج ولكن صفرته زينة لجانيه وريحه يزهو لجانيه كما قال فيه بعض واصفيه

اما ترى الليمون لما بدا * ياخذ اشراقه بالعيان
كانه بيض دجاج وقد * لطخته الجنس بالزعفران

وفى ذلك البستان من سائر الفواكه والرياحين والخضراوات والمشمومات من الياسمين والفاغية والفل والسنبل العنبرى والورد بسائر أنواعه ولسان الحمل والآس وكامل الرياحين من جميع الاجناس وذلك البستان من غير تشبيه كأنه قطعة من الجنان لرائيه اذا دخل العليل خرج منه كالاسد الغضبان لا يقدر على وصفه اللسان لما فيه من العجائب والغرائب التى لا توجد الا فى الجنان كيف لا واسم بوابه رضوان لكن بين المقامين شتان (فلما) تفرج أولاد التجار فى ذلك البستان جلسوا بعد التفرج والتنزه على ليوان من لواوينه وأجلسوا نور الدين فى وسط الليوان على نطع من الاديم المزركش متكئا على مخدة محشوة بريش النعام وظهارتها مدورة سنجابية ثم ناولوه مروحة من ريش النعام مكتوب عليها هذان البيتان

ومروحة معطرة النسيم * تذكر طيب أوقات النعيم
وتهدى طيبها فى كل وقت * الى وجه الفتى الحر الكريم

ثم ان هؤلاء الشباب خلعوا ما كان عليهم من العمائم والثياب وجلسوا يتحدثون ويتنادمون ويتجاذبون أطراف الكلام بينهم وكل منهم يتأمل فى نور الدين وينظر الى حسن صورته وبعد أن اطمأن بهم الجلوس ساعة من الزمان أقبل عليهم عبد وعلى رأسه سفرة طعام فيها أوانى من الصينى والبلور لأن بعض أولاد التجار كان أوصى أهل بيته بها قبل الخروج الى البستان وكان على تلك السفرة مما درج وطار ودب فى البحار كالقطا والسمان وافراخ الحمام وشياه الضان وألطف السمك فلما وضعت تلك السفرة بينهم تقدموا وأكلوا بحسب الكفاية ولما فرغوا من الاكل قاموا عن الطعام وغسلوا أيديهم بالماء الصافى والصابون الممسك وبعد ذلك نشفوا أيديهم بالمناديل المنسوجة بالحرير والقصب وقدموا لنور الدين منديلا مطرزا بالذهب الاحمر فمسح به يديه وجاءت القهوة وشرب كل منهم مطلوبه ثم جلسوا للحديث واذا بخولى البستان ذهب وجاء بسلة مملوءة بالورد وقال ما تقولون يا ساداتنا فى المشموم فقال بعض أولاد التجار لا باس به خصوصا الورد فانه لا يرد فقال البستانى نعم ولكن عادتنا أننا لا نعطى الورد الا بالمنادمة فمن أراد أخذه فليأت بشئ من الشعر يناسب المقام وكان أولاد التجار عشرة أشخاص فقال واحد منهم نعم أعطنى وأنا أنشدك شيأ من الشعر يناسب المقام فناوله حزمة من الورد فأخذها وأنشد هذه الابيات

الورد عندى محل * لانه لا يمل * كل الرياحين جند
وهو الامير الاجل * ان غاب عزوا وتاهوا * حتى اذا جاء ذلوا

ثم ناول الثانى حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

دونك ياسيدى وردة * يذكرك المسك أنفاسها
كغادة أبصرها عاشق * غطت بأكمامها راسها

ثم ناول الثالث حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

ورد نفيس تسر القلب رؤيته * تحكى روائحه ماطاب من ند
قد ضمه الغصن فى أوراقه طربا * كقبلة بفم من غير ماصد

ثم ناول الرابع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

أماترى دوحة الورد التى ظهرت * لها بدائع قد ركبن فى قضب
كأنهن يواقيت يطوف بها * زبرجد قد حوى شذرا من الذهب

ثم ناول الخامس حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

قضب الزبرجد قد حان وإنما * أثمارهن سبائك العقيان
وكأن وقع القطر من أوراقه * دمع بكته فواتر الاجفان

ثم ناول السادس حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

ياوردة لبديع الحسن قد جمعت * وأودع الله فيها لطف أسرار
كأنها خد محبوب ونقطه * لدى التواصل مشتاق بدينار

ثم ناول السابع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

قلت للورد ما لشوكك يؤذى * كل من مسه سريع الجراح
قال لى هذه الرياحين جندى * أنا سلطانها وشوكى سلاحى

ثم ناول الثامن حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

رعى الله وردا غدا أصفرا * بهيا نضيرا يحاكى النضار
وحسن غصون به أثمرت * وحملن منه شموسا صغار

ثم ناول التاسع حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

شجيرات ورد أصفر جذبت * فى قلب كل متيم طربا
عجبا لها من دوحة سقيت * ماء اللجين فأثمرت ذهبا

ثم ناول العاشر حزمة ورد فأخذها وأنشد هذين البيتين

ألم تر أن جند الورد يزهو * بصفر من مطالعه وحمر
وقد شبهته والشوك فيه * نصال زمرد فى ترس تبر

فلما استقر الورد فى أيديهم أحضر البستانى سفرة المدام ووضع بينهم صينية مزركشة

بالذهب الاحمر وأنشد يقول

هتف الفجر بالسنا فاسق خمرا * عانسا تجعل الحليم سفيها
لست أدرى من لطفها وصفاها * أبكاس ترى أم الكاس فيها

ثم ان خولى البستان ملأ وشرب ودار الدور الى أن وصل الى نور الدين ابن التاجر تاج الدين فملأ خولى البستان كاسا وناوله اياه فقال له نور الدين أنت تعرف أن هذا شئ لا أعرفه ولا شربته قط لان فيه اثما كبيرا وقد حرم فى كتاب الرب القديم فقال خولى البستان يا سيدى نور الدين ان كنت ما تركت شربه الا من أجل الاثم فان الله سبحانه وتعالى كريم حليم غفور رحيم يغفر الذنب العظيم ورحمته وسعت كل شئ ورحمة الله على بعض الشعراء حيث قال

كن كيف شئت فان الله ذو كرم * وما عليك اذا أذنبت من باس
الا اثنتين فلا تقربهما أبدا * الشرك بالله والاضرار للناس

ثم قال واحد من أولاد التجار بحياتى عليك يا سيدى نور الدين أن تشرب هذا القدح وتقدم شاب آخر وحلف عليه بالطلاق وآخر وقف بين يديه على أقدامه فاستحى نور الدين وأخذ القدح من خولى البستان وشرب منه جرعة ثم بصقها وقال هذا مر فقال له الشاب خولى البستان يا سيدى على نور الدين لولا أنه مر ما كانت فيه هذه المنافع ألم تعلم ان كل حلو اذا أكل على سبيل التداوى يجده الآكل مرا وان هذه الخمرة منافعها كثيرة فمن جملة منافعها انها تهضم الطعام وتصرف الهم والغم وتزيل الرياح وتروق الدم وتصفى اللون وتنعش البدن وتشجع الجبان وتقوى همة الرجل على الجماع ولو أننا ذكرنا منافعها كلها الطال علينا شرح ذلك وقال بعض الشعراء

شربنا وعفو الله من كل جانب * وداويت أسقامى بمرتشف الكاس
وما غرنى فيها وأعرف اثمها * سوى قوله فيها منافع للناس

ثم ان خولى البستان نهض قائما على أقدامه من وقته وساعته وفتح مخدعا من مخادع ذلك الايوان وأخرج منه قمع سكر مكرر وكسر منه قطعة كبيرة ووضعها النور الدين فى القدح وقال له يا سيدى ان كنت هبت شرب الخمر من مرارته فاشرب الآن فقد حلا فعند ذلك أخذ على نور الدين القدح وشربه ثم ملأ الكاس واحد من أولاد التجار وقال يا سيدى على نور الدين أنا عبدك وقام آخر وقال أنا خدامك وقام آخر وقال من أجل خاطرى وقام آخر وقال بالله عليك يا سيدى على نور الدين اجبر بخاطرى ولم يزل أولاد التجار العشرة بنور الدين الى أن سقوه العشرة أقداح كل واحد قدحا وكان باطن

الدين بكر اعمره ماشرب خمرا قط الا في تلك الساعة فدار الخمر في دماغه وقوى عليه السكر فوقف على حيله وقد ثقل لسانه وانعجم كلامه وقال يا جماعة والله أنتم ملاح وكلامكم مليح ومكانكم مليح الا أنه يحتاج الى سماع طيب فان الشراب بلا سماع عدمه أولى من وجوده كما قال الشاعر أدرها بالكبير وبالصغير * وخذها من يد القمر المنير ولا تشرب بلا طرب فاني * رأيت الخيل تشرب بالصفير فعند ذلك نهض الشاب صاحب البستان وركب بغلة من بغال أولاد التجار وغاب ثم عاد ومعه صبية مصرية كأنها الية طرية أو فضة نقية أو دينار في صينية أو غزال في برية بوجه يخجل الشمس المضية وعيون بابلية وحواجب كأنها قسي محنية وخدود وردية وأسنان لؤلؤية ومراشف سكرية وعيون مرخية ونهود عاجية وبطن خماصية وأعكان مطوية وأرداف كأنها مخدات محشية ونحذين كالجداول الشامية وبينهما شيء كأنه صرة في بقجة مطوية كما قيل فيها

ولو أنها للمشركين تعرضت * رأوا وجهها من دون أصنامهم ربا
ولو أنها في الغرب لاحت لراهب * تخلى سبيل الشرق واتبع الغربا
ولو تفلت في البحر والبحر مالح * لاصبح ماء البحر من ريقها عذبا

(وكما قال آخر)

أبهى من البدر كحلاء العيون بدت * كأنما قنصتها كف آساد
أرخت عليها الليالي من ذوائبها * بيتا من الشعر لم يشدد باوتاد
من ورد وجنتها النيران ما اتقدت * الا بافئدة ذابت وأكباد
فلو رآها حسان العصر قمن لها * على الرؤس وقلن الفضل للبادي

(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ثلاثة منعتها عن زيارتنا * خوف الرقيب وخوف الحاسد الحنق
ضوء الجبين ووسواس الحلى وما * حوت معاطفها من عنبر عبق
هب الجبين بفضل الكم تستره * والحلى تنزعه ما حيلة العرق

وتلك الصبية كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر وعليها بدلة زرقاء بقناع أخضر فوق جبين أزهر تدهش العقول وتحير أرباب المعقول وهي في غاية الحسن والجمال ورشاقة القد والاعتدال كأنها المرادة بقول الشاعر

أقبلت في غلالة زرقاء * لاذ وردية كلون السماء
فتحققت في الغلالة منها * قمر الصيف في ليالي الشتاء

{وما أحسن قول الآخر وأجوده}

جاءت مبرقعة فقلت لها اسفري * عن وجهك القمر المنير الازهر
قالت أخاف العار قلت لها اقصري * بحوادث الايام لا تتحيري
رفعت نقاب الحسن عن وجناتها * فتساقط البلور فوق الجوهر
ولقد هممت بقتلها من حبها * كيما تكون خصيمتي في المحشر
ونكون أول عاشقين تخاصما * يوم القيامة عند رب أكبر
وأقول طول في الحساب وقوفنا * حتى يطول الى الحبيبة منظري

ثم ان الشاب خولي البستان قال لتلك الصبية اعلمي يا سيدة الملاح وكل كوكب لاح أننا ما قصدنا بحضورك في هذا المكان الآن تنادمي هذا الشاب المليح سيدي علي نور الدين فانه لم يبات بحالنا هذا الا في هذا اليوم فقالت له الصبية ليتك كنت أخبرتني لأجل أن أجيء بالذي كان معي فقال لها يا سيدتي أنا أروح وأجيء به اليك فقالت له الصبية افعل ما بدا لك فقال لها اعطني أمارة فاعطته منديلا فعند ذلك خرج مسرعا وغاب ساعة زمانية ثم عاد ومعه كيس أخضر من حرير أطلس بشكلين من الذهب فاخذته الصبية منه وحلته ونفضته فنزل منه ثنتان وثلاثون قطعة خشب ثم ركبت الخشب في بعضه على صورة ذكر في أنثى وأنثى في ذكر وكشفت عن معصميها واقامته فصار عودا محكوكا مجرودا صنعة الهنود ثم انحنت عليه تلك الصبية انحناء الوالدة على ولدها وزغزغته بانامل يدها فعند ذلك أن العود ورن ولا ما كنه القديمة قد حن وتذكر المياه التي قد سقته والارض التي نبت منها وتربى فيها وتذكر النجارين الذين قطعوه والدهانين الذين دهنوه والتجار الذين جلبوه والمراكب التي حملته فصرخ وصاح وعدد وناح وكانها سألته عن ذلك كله فاجابها بلسان الحال منشدا هذه الابيات

لقد كنت عودا للبلابل منزلا * أميل بها وجدا وفرعي أخضر
ينوحون من فوقي فعلمت نوحهم * ومن أجل ذلك النوح سري مجهر
رماني بلا ذنب على الارض قاطعي * وصيرني عودا نحيلا كما ترو
ولكن ضربي بالانامل مخبر * باني قتيل في الانام مصبر
فمن أجل هذا صار كل منادم * اذا ما رأى نوحي يهيم ويسكر
وقد حنن المولى على قلوبهم * وقد صرت في أعلى الصدور أصدر
تعانق قدي كل من فاق حسنها * وكل غزال ناعس الطرف أحور

فلا فرّق الله المهيمن بيننا * ولا عاش محبوب يصد ويهجر

ثم سكتت الصبية ساعة وبعد ذلك أخذت ذلك العود في حجرها وانحنت عليه انحناء الوالدة على ولدها وضربت عليه طرقا عديدة ثم عادت الى طريقتها الاولى وأنشدت هذه الابيات لو أنهم جنحوا للصب أوزاروا * لحط عنه من الاشواق أوزار

وعندليب على غصن يشاجره * كأنه عاشق شطت به الدار

قم وانتبه فليالي الوصل مقمرة * كأنها باجتماع الشمل أسحار

واليوم في غفلة عنا حواسدنا * وقد دعتنا الى اللذات أوتار

أما ترى أربعا للهو قد جمعت * آس وورد ومنثور ونوّار

واليوم قد جمعت للحظ أربعة * صب وخل ومشروب ودينار

فاظفر بحظك في الدنيا فلذتها * تفني وتبقى روايات وأخبار

فلما سمع نور الدين من الصبية هذه الابيات نظر اليها بعين المحبة حتى كاد لا يملك نفسه من شدة الميل اليها وهي الاخرى كذلك لانها نظرت الى الجماعة الحاضرين من أولاد التجار كلهم والى نور الدين فرأته بينهم كالقمر بين النجوم لانه كان رخيم اللفظ والدلال كامل القد والاعتدال والبهاء والجمال ألطف من النسيم وأرق من التسنيم ثم أنشدت هذه الابيات

قسما بوجنته وباسم ثغره * وبأسهم قد راشها من سحره

وبلين معطفه ونبل لحاظه * وبياض غرته وأسود شعره

وبحاجب حجب الكرى عن ناظري * وسطا علي بنهيه وبأمره

وعقارب قد أرسلت من صدغه * وسعت لقتل العاشقين بهجره

وبورد خديه وآس عذاره * وعقيق مبسمه ولؤلؤ ثغره

وبغصن قامته الذي هو مثمر * رمانة يزهو جناه بصدره

وبردفه المرتج في حركاته * وسكونه وبرقة في خصره

وحرير ملمسه وخفة ذاته * وبما حواه من الجمال بأسره

ان الشذا قد فاح من أنفاسه * والريح تروي طيبها عن نشره

وكذلك الشمس المنيرة دونه * وكذا الهلال قلامة من ظفره

فلما سمع نور الدين كلام تلك الصبية وشعرها العجيبة نظامها وكان قد مال من السكر جعل يمدحها ويقول

عوادة مالت بنا * في نشوة المتنبذ قالت لنا أوتارها * أنطقنا الله الذي

فلما تكلم نور الدين بهذا الكلام وأنشد هذا الشعر والنظام نظرت له تلك الصبية بعين المحبة وزادت فيه عشقا وغراما وقد صارت متعجبة من حسنه وجماله ورشاقة قده واعتداله فلم تملك نفسها بل احتضنت العود ثانيا وأنشدت هذه الابيات

يعاتبني على نظري اليه * ويهجرني وروحي في يديه
ويبعدني ويعلم ما بقلبي * كأن الله قد أوحى اليه
كتبت مثاله في وسط كفي * وقلت لناظري عول عليه
فلا عيني ترى عنه بديلا * ولا قلبي يصبرني لديه
فيا قلبي نزعتك من فؤادي * لانك بعض حسادي عليه
اذا ما قلت يا قلبي تسلى * فقلبي لم يمل الا اليه

فلما أنشدت الصبية تلك الابيات تعجب نور الدين من حسن شعرها وبلاغة كلامها وعذوبة لفظها ولطف نظامها فطار عقله من شدة الغرام والوجد والهيام ولم يقدر أن يصبر عنها ساعة من الزمان بل مال اليها وضمها الى صدره ضمة العاشق الولهان فانطبقت عليه وصارت بكليتها لديه وقبلته بين عينيه وقبل هو فاها بعد ضم القوام ولعب معها في التقبيل كزق الحمام فالتفتت له وفعلت معه مثل ما فعل معها فهام الحاضرون وقاموا على أقدامهم فاستحى نور الدين ورفع يده عنها ثم انها أخذت عودها وضربت عليه طرائق عديدة ثم عادت الى الطريقة الاولى وأنشدت هذه الابيات

قمر يسل من الجفون اذا انثنى * عضبا ويهزأ بالغزال اذا رنا
ملك محاسنه البديعة جنده * ولذا الطعان قوامه يحكي القنا
لو أن رقة خصره في قلبه * ما جار قط على المحب ولا جنى
يا قلبه القاسي ورقة خصره * هلا نقلت الى هنا من ههنا
يا عاذلي في حبه كن عاذري * فلك البقاء بحسنه ولي الفنا

فلما سمع علي نور الدين حسن كلامها وبديع نظامها مال اليها من الطرب ولم يملك عقله من شدة العجب ثم انه أنشد هذه الابيات

لقد خلتها شمس الضحى فتجلت * لكن لهيب الصد منها بمهجتي
وماذا عليها لو أشارت فسلمت * علينا باطراف البنان وأومت
رأى وجهها اللاحي فقال وتاه في * محاسنها اللاتي عن الحسن جلت
أهذي التي قد همت شوقا بحبها * وانك معذور فقلت هي التي
رمتني بسهم اللحظ عمدا وما رثت * لحالي وذلي وانكساري وغربتي

فاصبحت مسلوب الفؤاد متيما * أنوح وأبكى طول يومى وليلتى

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت الصبية من فصاحته ولطافته وأخذت عودها وضربت عليه باحسن حركاتها وأعادت جميع النغمات ثم أنشدت هذه الابيات

وحياة وجهك يا حياة الانفس * لا حلت عنك يئست أم لم تيئس
فلئن جفوت فان طيفك واصل * أو غبت عن عينى فذكرك مؤنسى
يا موحشا طرفى وتعلم اننى * أبدا بغير هواك لم استأنس
خداك من ورد وريقك خمرة * هلا سمحت بها بهذا المجلس

فعند ذلك طرب نور الدين من انشاد تلك الصبية غاية الطرب وتعجب منها غاية العجب ثم أجابها على شعرها بهذه الابيات

ما أسفرت عن محيا الشمس فى الغسق * الا تحجب بدر التم فى الافق
ولا بدت لعيون الصبح طرتها * الا وعوذت ذاك الفرق بالفلق
خذ عن مجارى دموعى فى تسلسلها * وارو حديث الهوى من أقرب الطرق
ورب رامية بالنبل قلت لها * مهلا بنبلك ان القلب فى فرق
ان كان دمعى لبحر النيل نسبته * فان ودك منسوب الى الملق
قالت فهات جميع المال قلت خذى * قالت ونومك أيضا قلت من حدقى

فلما سمعت تلك الصبية كلام نور الدين وحسن فصاحته طار عقلها واندهش لبها وقلبها احتوى على مجامع قلبها فضمته الى صدرها وصارت تقبله تقبيلا كزق الحمام وكذلك هو الآخر قابلها بتقبيل متلاحق ولكن الفضل للسابق وبعد أن فرغت من تلك التقبيلات أخذت العود وأنشدت هذه الابيات

ويلاه ويلى من ملامة عاذلى * أشكوه أم أشكو اليه تململى
يا هاجرى ما كنت أحسب اننى * ألقى الاهانة فى هواك وأنت لى
عنفت ارباب الصبابة بالجوى * وأبحت فيك لعاذليك تذللى
بالامس كنت ألوم أرباب الهوى * واليوم أعذر كل صب مبتلى
وان اعترتنى من فراقك شدة * أصبحت أدعو الله باسمك يا على

فلما فرغت تلك الصبية من شعرها أنشدت أيضا هذين البيتين

قالت لى العشاق ان لم يسقنا * من ريقه ورحيق فيه السلسل
ندعوا اله العالمين يجيبنا * ويقول فيه الكل متنايا على

فلما سمع نور الدين من تلك الصبية هذا الكلام والشعر والنظام تعجب من فصاحة

لسانها وشكرها على ظرافة افتتانها وأثنى عليها غاية الثناء فلما سمعت الصبية ثناء نور الدين عليها قامت من وقتها وساعتها على قدميها وقلعت جميع ما كان عليها من ثياب ومصاغ وتجردت من ذلك كله ثم جلست على ركبتيه وقبلته بين عينيه وعلى شامتي خديه ووهبت له جميع ذلك وقالت له اعلم يا حبيب قلبي ان الهدية على مقدار مهديها فقبل نور الدين منها ذلك ثم رده عليها وقبلها في فمها وخديها فلما انقضى ذلك ولم يدم الا الحي القيوم رازق الطاوس والبوم قام نور الدين من ذلك المجلس ووقف على قدميه فقالت الصبية الى أين يا سيدي فقال لها الى بيت والدي فحلف عليه أولاد التجار أنه ينام عندهم فابى وركب بغلته ولم يزل سائرا حتى وصل الى بيت والده فقامت له أمه وقالت له يا ولدي ما سبب غيابك الى هذا الوقت والله انك قد شوشت علي وعلى والدك بغيابك عنا وقد اشتغل خاطرنا عليك ثم ان امه تقدمت اليه لتقبله في فمه فشمت منه رائحة الخمر فقالت لا حول ولا قوة الا بالله العلي العظيم يا ولدي كيف بعد الصلاة والعبادة صرت تشرب الخمر وتعصي من له الخلق والامر فبينما هما في الكلام واذا بوالده قد أقبل ثم ان نور الدين ارتمى في الفراش ونام فقال أبوه ما لنور الدين هكذا فقالت له أمه كان رأسه أوجعه من البستان فعند ذلك تقدم له والده ليسأله عن وجعه ويسلم عليه فشم منه رائحة الخمر وكان ذلك التاجر المسمى تاج الدين لا يحب من يشرب الخمر فقال له ويلك يا ولدي هل بلغ بك السفه الى هذا الحد حتى تشرب الخمر فلما سمع نور الدين كلام والده رفع يده وهو سكران ولطمه بها فجاءت اللطمة بالامر المقدر على عين والده اليمنى فسالت على خده فوقع على الارض مغشيا عليه واستمر في غشيته ساعة فرشوا عليه ماء الورد فلما أفاق من غشيته أراد أن يضربه فمنعته أمه فحلف بالطلاق من أمه انه اذا أصبح الصباح لا بد من قطع يده اليمنى فلما سمعت أمه كلام والده ضاق صدرها وخافت على ولدها ولم تزل تداري والده وتأخذ بخاطره الى أن غلب عليه النوم فصبرت الى أن طلع القمر وأتت الى ولدها وقد زال عنه السكر فقالت له يا نور الدين ما هذا الفعل القبيح الذي فعلته مع والدك فقال لها وما الذي فعلته مع والدي فقالت انك لطمته بيدك على عينه اليمنى فسالت على خده وقد حلف بالطلاق انه اذا أصبح الصباح لا بد ان يقطع يدك اليمنى فندم نور الدين على ما وقع منه حيث لا ينفعه الندم فقالت له أمه يا ولدي ان هذا الندم لا ينفعك وانما ينبغي لك أن تقوم في هذا الوقت وتهرب وتطلب النجاة لنفسك وتختفي عند خروجك حتى تصل الى أحد من أصحابك وتنظر ما يفعله الله فانه يغير حالا بحال ثم ان أمه فتحت صندوق المال وأخرجت منه كيسا فيه مائة دينار وقالت له

يا ولدي خذ هذه الدنانير واستعن بها على مصالح حالك فاذا فرغت منك يا ولدي فارسل اعلمني حتى ارسل اليك غيرها واذا راسلتني فارسل الى أخبارك سرا فلعل الله أن يقدر لك فرجا وتعود الى منزلك ثم انها ودعته وبكت البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد فعند ذلك أخذ نور الدين كيس الدنانير من أمه وأراد ان يخرج فرأى كيسا كبيرا قد نسيته أمه بجنب الصندوق فيه ألف دينار فأخذه نور الدين ثم ربط الاثنين على وسطه وخرج من الزقاق وتوجه قبل الفجر الى جهة بولاق فلما أصبح الصباح وقامت الخلائق توحد الملك الفتاح وخرج كل واحد منهم الى مقصده ليحصل ما قسم الله تعالى له كان نور الدين وصل الى بولاق فصار يمشي على ساحل البحر فرأى مركبا سقالتها ممدودة والناس تطلع فيها وتنزل منها ومراسيها أربع مدقوقة في البر ورأى البحرية واقفين فقال لهم نور الدين الى أين أنتم مسافرون فقالوا له الى مدينة اسكندرية فقال لهم نور الدين خذوني معكم فقالوا أهلا وسهلا ومرحبا بك يا شاب يا مليح فعند ذلك نهض نور الدين من وقته وساعته ومضى الى السوق وأخذ ما يحتاج اليه من زوادة وفرش وغطاء ثم رجع الى المركب وكانت تلك المركب تجهزت للسفر فلما نزل نور الدين في المركب لم تمكث الا قليلا وسارت من وقتها وساعتها ولم تزل تلك المركب سائرة حتى وصلت الى مدينة رشيد فلما وصلوا الى هنالك رأى نور الدين زورقا صغيرا سائرا الى الاسكندرية فنزل فيه وعدى الخليج ولم يزل سائرا الى أن وصل قنطرة تسمى قنطرة الجامي فطلع نور الدين من ذلك الزورق ودخل من باب يقال له باب السدرة وقد ستر الله عليه فلم ينظره أحد من الواقفين بالباب فمشى نور الدين حتى دخل مدينة الاسكندرية فرآها مدينة حصينة الاسوار حسنة المتنزهات تلذ لسكانها وترغب في استيطانها قد ولى عنها فصل الشتاء ببرده وأقبل عليها فصل الربيع بورده وازدهت أزهارها وأورقت أشجارها وأينعت أثمارها وتدفقت أنهارها وهي مدينة مليحة الهندسة والقياس وأهلها أجناد من خيار الناس اذا غلقت أبوابها أمنت أصحابها وهي كما قيل فيها هذه الابيات

قد قلت يوما لخل * له مقال فصيح
اسكندرية صفها * فقال ثغر مليح
قلت وفيها معاش * فقال ان هب ريح

(وقال فيها أيضا بعض الشعراء)

اسكندرية ثغر * رضابه يستطاب
ما أحسن الوصل فيها * ان لم يصبه اغراب

فمشى نور الدين في تلك المدينة ولم يزل ماشيا فيها الى أن وصل الى سوق النجارين ثم الى سوق الصرافين ثم الى سوق النقلية ثم الى سوق الفكهانية ثم الى سوق العطارين وهو

يتعجب من تلك المدينة لان وصفها قد شاكل اسمها فبينما هو يمشي في سوق العطارين
واذا برجل كبير السن نزل من دكانه وسلم عليه ثم أخذه من يده ومضى به الى منزله فرأى
نور الدين زقاقا مليحا مكنوسا مرشوشا قد هب عليه النسيم وراق وظللته من الاشجار
أوراق وفي ذلك الزقاق ثلاث دور وفي صدر ذلك الزقاق دار اساسها راسخ في الماء
وجدرانها شاهقة الى عنان السماء قد كنسوا الساحة التي قدامها ورشوها وتشم روائح
الازهار قاصدوها يقابلها النسيم كأنه من جنات النعيم فاول ذلك الزقاق مكنوس
مرشوش وآخره بالرخام مفروش فدخل الشيخ بنور الدين الى تلك الدار وقدم له شيأ
من المأكول وأكل معه فلما فرغ من الاكل قال له الشيخ متى كان القدوم من مدينة
مصر فقال له يا والدي في هذه الليلة قال له ما اسمك قال علي نور الدين فقال له وما اسم
أبيك فقال له تاج الدين فقال له الشيخ يا ولدي يا نور الدين يلزمني الطلاق ثلاثا انك
مادمت مقيما في هذه المدينة لا تفارقني وأنا أخلي لك موضعا تسكن فيه فقال له نور
الدين ياسيدي الشيخ زدني بك معرفة فقال يا ولدي اعلم اني دخلت مصر في بعض السنين
بتجارة فبعتها فيها واشتريت متجرا آخر فاحتجت الى ألف دينار فوزنها عني والدك تاج
الدين من غير معرفة له بي ولم يكتب علي بها منشورا وصبر علي بها الى ان رجعت الى هذه
المدينة وأرسلتها اليه مع بعض غلماني ومعها هدية وقد رأيتك وأنت صغير وان شاء الله
تعالى اجازيك ببعض ما فعل والدك معي فلما سمع نور الدين هذا الكلام أظهر الفرح
والابتسام وأخرج الكيس الذي فيه الالف دينار وأعطاه لذلك الشيخ وقال له خذها
وديعة عندك حتى أشتري بها شيأ من البضائع لاتجر فيه ثم ان نور الدين أقام في مدينة
اسكندرية مدة أيام وهو يتفرج في كل يوم في شارع من شوارعها ويأكل ويشرب
ويتلذذ ويطرب الى ان فرغت منه المائة دينار التي كانت معه برسم النفقة فأتى الى الشيخ
العطار ليأخذ منه شيأ من الالف دينار ينفقه فلم يجده في الدكان فجلس في الدكان
ينتظره الى ان يعود وصار يتفرج على التجار ويتأمل ذات اليمين وذات اليسار فبينما
هو كذلك واذا بأعجمي قد أقبل على السوق وهو راكب على بغلة وخلفه جارية كأنها
فضة نقية أو بلطية في فسقية أو غزالة في برية بوجه يخجل الشمس المضيئة وعيون
بابلية ونهود عاجية واسنان لؤلؤية وبطن خماصة وأعطاف مطوية وسيقان كأطراف
لية كاملة الحسن والجمال ورشاقة القد والاعتدال كما قال فيها بعض واصفيها

كأنها مثل ما تهواه قد خلقت * في رونق الحسن لا طول ولا قصر

الورد من خدها يحمر من خجل ✱ والغصن من قدها يزهو به الثمر
فالبدر طلعتها والمسك نكهتها ✱ والغصن قامتها ما مثلها بشر
كأنها أفرغت من ماء لؤلؤة ✱ في كل جارحة من حسنها قمر

ثم ان الاعجمي نزل عن بغلته وأنزل الصبية وصاح على الدلال خضر بين يديه فقال له خذ هذه الجارية وناد عليها في السوق فأخذها الدلال ونزل بها الى السوق وغاب ساعة ثم عاد ومعه كرسي من الآبنوس مزركش بالعاج الابيض فوضعه الدلال على الارض وأجلس عليه تلك الصبية ثم كشف القناع عن وجهها فبان من تحته وجه كأنه ترس ديلمي أو كوكب دري وهي كأنها البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر بغاية الجمال الباهر كما قال فيها الشاعر

قد عارض البدر جهلا حسن صورتها ✱ فراح منكسفا وانشق بالغضب
وسرحة البان ان قيست بقامتها ✱ تبت يداها اذا حمالة الحطب

﴿وما أحسن قول الآخر﴾

قل للمليحة في الخمار المذهب ✱ ماذا فعلت بعابد مترهب
نور الخمار ونور وجهك تحته ✱ هزما بضوئهما جيوش الغيهب
واذا أتى طرف ليسرق نظرة ✱ في الخد حراس رمته بكوكب

فعند ذلك قال الدلال للتجار كم دفعتم في درة الغواص وقنية القناص فقال له تاجر من التجار على بمائة دينار وقال آخر بمائتين وقال آخر بثلثمائة ولم يزل التجار يتزايدون في تلك الجارية الى أن أوصلوا ثمنها الى تسعمائة وخمسين دينارا وتوقف البيع على الايجاب والقبول فعند ذلك أقبل الدلال على الاعجمي سيدها وقال له ان جاريتك بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا فهل تبيع ونقبض لك الثمن فقال الاعجمي هل هي راضية بذلك فاني أحب مراعاة خاطرها لاني ضعفت في هذه السفرة وخدمتني هذه الجارية غاية الخدمة فحلفت أني لا أبيعها الا لمن تشتهي وتريد وجعلت بيعها بيدها فشاورها فان قالت رضيت فبعها لمن أرادته وان قالت لا فلا تبعها فعند ذلك تقدم الدلال اليها وقال لها يا سيدة الملاح اعلمي ان سيدك قد جعل بيعك بيدك وقد بلغ ثمنك تسعمائة وخمسين دينارا أفتأذنين لي ان أبيعك فقالت الجارية للدلال أرني الذي يريد أن يشتريني قبل انعقاد البيع فعند ذلك جاء الدلال بها الى رجل من التجار وهو شيخ كبير هرم فنظرت اليه الجارية ساعة زمانية وبعد ذلك التفتت الى الدلال وقالت له يا دلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك فقال لها الدلال لاي شيء يا سيدة الملاح تقولين لي

هذا الكلام فقالت له الجارية أيحل لك من الله أن تبيع مثلي لهذا الشيخ الهرم الذي قال في شأن زوجته هذه الابيات

تقول لي وهي غضبى من تدللها * وقد دعتني الى شئ فما كانا
ان لم تنكني نيك المرء زوجته * فلا تلمني اذا أصبحت قرنانا
كان أيري شمع من رخاوته * فكلما عركته راحتي لانا

وقال في أيره أيضا

لي أير ينام اذا ما وشى ؤما * كلما نالت من حبيب وصالا له
واذا ما غدوت في البيت فردا * طلب الطعن وحده والنزالا

وقال في أيره أيضا

ولي أير سوء كثير الجفا * يعامل باللؤم من يكرمه
اذا نمت قام وان قمت نا * م فلا رحم الله من يرحمه

فلما سمع شيخ التجار من تلك الصبية هذا الهجو اغتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال للدلال يا نحس الدلالين ما جئت الينا في السوق الا بجارية مشؤمة تجترئ علي وتهجوني بين التجار فعند ذلك أخذها الدلال وانصرف عنه وقال لها يا سيدتي لا تكوني قليلة الادب ان هذا الشيخ الذي هجوتيه هو شيخ السوق ومحتسبه وصاحب مشورة التجار فضحكت وانشدت هذين البيتين

يصلح للحكام في عصرنا * وذاك للحكام مما يجب
الشنق للوالي على بابه * والضرب بالدرة للمحتسب

ثم ان تلك الجارية قالت للدلال والله يا سيدي أنا لا أباع لهذا الشيخ فبعني لغيره لانه ربما يخجل مني فيبيعني الى آخر فاصير ممتهنة ولا ينبغي لي أن أدنس نفسي بالامتهان وقد علمت أن أمر بيعي مفوض الي فقال لها الدلال سمعا وطاعة ثم توجه بها الى رجل من التجار الكبار فلما وصل بها الى ذلك الرجل قال لها يا سيدتي هل أبيعك لسيدي شريف الدين هذا بتسعمائة وخمسين دينارا فنظرت اليه الجارية فرأته شيخا ولكن لحيته مصبوغة فقالت للدلال هل أنت مجنون أو مصاب في عقلك حتى تبيعني لهذا الشيخ الفاني فهل أنا من كتكت المشاق أو من مهلهل الاخلاق حتى تطوف بي على شيخ بعد شيخ وكلاهما كجدار آيل الى السقوط أو عفريت محقه النجم بالهبوط أما الاول فانطق لسان الحال فيه بقول من قال

طلبت قبلتها في ثغرها فبكت * بدر دمع على الخدين منتظم
ثم انثنت كغزال وهي قائلة * لا والذي أوجد الاشياء من عدم
ما كان لي في بياض الشيب من أرب * أفي الحياة يكون القطن حشو فمي

وما أحسن قول الشاعر قالوا بياض الشعر نور ساطع * يكسو الوجوه مهابة وضياء
حتى تداخط المشيب بمفرقي * فوددت أن لا أعدم الظلماء
ولو أن لحيته من يشيب صحيفة * بعداده ما اختارها بيضاء

(وأحسن منه قول الآخر)

ضيف ألم برأسي غير محتشم * السيف أحسن فعلا منه باللمم
أبعد بعدت بياض الا بياض له * لانت أسود في عيني من الظلم

وأما الآخر فانه ذو عيب وريب ومسود وجه الشيب قد أتى في خضاب شيبه بأقبح مين وأنشدت هذين البيتين

قالت أراك خضبت الشيب قلت لها * كتمته عنك يا سمعي ويا بصري
فقهقهت ثم قالت ان ذا عجب * تكاثر الغش حتى صار في الشعر

(وما أحسن قول الشاعر)

يا من يخضب بالسواد مشيبه * كي يستقر له الشباب ويحصل
هاك اختضب بسواد حظي مرة * ولك الضمان بانه لا ينصل

فلما سمع الشيخ الذي صبغ لحيته من تلك الجارية هذا الكلام اغتاظ الغيظ الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال يا انحس الدلالين ما جئت في هذا اليوم سوقنا الا بجارية سفيهة تسفه على كل من في السوق واحدا بعد واحد وتهجوهم بالاشعار والكلام الفشار ثم ان ذلك التاجر نزل من دكانه وضرب الدلال على وجهه فاخذها الدلال ورجع بها وهو غضبان وقال والله ما رأيت عمري جارية أقل حياء منك وقد قطعت رزقي ورزقك في هذا النهار وقد بغضتني من أجلك جميع التجار فرآهما في الطريق رجل من التجار فزاد في ثمنها عشرة دنانير وكان اسم ذلك التاجر شهاب الدين فاستأذن الدلال الجارية في البيع فقالت أرني اياه حتى أنظر اليه وأساله عن حاجة فان كانت تلك الحاجة في بيته فانا أباع له والا فلا فخلاها الدلال واقفة ثم تقدم اليه وقال له يا سيدي شهاب الدين اعلم ان هذه الجارية قالت لي انها تريد أن تسألك عن حاجة فان كانت عندك فانها تباع لك وها أنت قد سمعت ما قالته لاصحابك من التجار واني والله خائف ان أجي بها اليك فتعمل معك مثل ما عملت مع جيرانك وأبقى أنا معك مفضوحا فان أذنت لي في المجيء بها اليك فعلت فقال له ائتني بها فقال الدلال سمعا وطاعة ثم ذهب الدلال وأتى بالجارية اليه فنظرته الجارية وقالت له يا سيدي شهاب الدين هل في بيتك مدورات محشوة بقطاعة فرو السنجاب فقال لها نعم يا سيدة الملاح عندي في البيت عشر مدورات محشوة

بقطاعة ـ تفروا استعاب فبالله عليك ماذا تصنعين بهذه المدورات فقالت أصبر عليك حتى ترقد وأجعلهما على فلك وأنفلك حتى تموت ثم انها التفتت الى الدلال وقالت له يا أنحس الدلالين كأنك مجنون حتى تعرضني من منذ ساعة على اثنين من الشيوخ في كل واحد منهما عيبان وبعد ذلك تعرضني على سيدي شهاب الدين وفيه ثلاث عيوب الاول أنه قصير والثاني أن أنفه كبير والثالث أن لحيته طويلة وقد قال فيه بعض الشعراء

ما رأينا ولا سمعنا بشخص * مثل هذا بين الخلائق أجمع

فله لحـيـة ذراع وأنف * طول شبر وقامة طول أصبع

(وقال بعضهم أيضا) منارة الجامع في وجهه * كهيئة الخنصر في الخاتم

لو دخل العالم في أنفه * أصبحت الدنيا بلا عالم

فلما سمع التاجر شهاب الدين من الجارية ذلك الكلام نزل من الدكان وأخذ بطوق الدلال وقال له يا أنحس الدلالين كيف تأتي الينا بجارية توبخنا وتخونا واحدا بعد واحد بالاشعار والكلام الفشار فعند ذلك أخذها الدلال وذهب من بين يديه وقال لها والله طول عمري وانا في هذه الصناعة ما رأيت جارية أقل أدبا منك ولا أنحس على من تحمل لانك قد قطعت رزقي في هذا اليوم ولا ربحت منك الا الصفع على القفا والاخذ بالطوق ثم ان الدلال وقف بتلك الجارية أيضا على تاجر صاحب عبيد وغلمان وقال لها أتباعين لهذا التاجر سيدي علاء الدين فنظرته فوجدته احدب فقالت ان هذا احدب وقد قال فيه الشاعر

قصرت مناكبه وطال فقاره * فحكاه شيطان يصادف كوكبا

وكأنه قد خاف أول مرة * واحس ثانية فصار محدبا

(وقال فيه أيضا) اذا رقي احدكم بغلة * صار بها بين الورى مثله

اماله الضحك فلا تعجبوا * ان حفلت من تحته البغله

وقال فيه أيضا بعض الشعراء ولرب أحدب زاد في حدباته * قبحا وقاطبة العيون تمجه

فكأنه غصن تقاص يابس * ولواه من طول المدى أترجه

فعند ذلك اسرع الدلال اليها وأخذها وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها أتباعين لهذا فنظرت اليه فوجدته أعمش فقالت ان هذا أعمش كيف تبيعني له وقد قال فيه بعض الشعراء

رمـد به امراضه * هـدت قواه لحينه

يا قوم قوموا فانظروا * هـذا القذى في عينه

فعند ذلك أخذها الدلال وأتى بها الى تاجر آخر وقال لها اتباعين لهذا فنظرت اليه

فرأت لحيته كبيرة فقالت للدلال و يلك ان هـذا الرجـل كبش ولكن طلع ذيله من حلقه كيف تبيعني له يا نحس الدلالين اما سمعت ان كل طويل الذقن قليل العقل وعلى قدر طول اللحية يكون نقصان العقل وهذا أمر مشهور بين العقلاء كما قال بعض الشعراء

مارجـل طالت له لحية * فزادت اللحيـة في هيبته
الا وما ينقص من عقله * يكون طولا زاد في لحيته

وكما قال بعض الشعراء أيضا لنا صـديق وله لحية * طولها الله بلا فائدة
كأنها بعض ليالي الشتا * طويلة مظلمة باردة

فعند ذلك أخـذها الدلال و رجـع فقالت له الى أين تتوجه بي فقال لها الى سيدك الاعجمي وكفانا ما جرى لنا بسببك في هذا النهار وقد تسببت في منع رزقي ورزقه بقلة أدبك ثم ان الجارية نظرت في السوق والتفتت يمينا وشمالا فوقع نظرها بالامر المقدر على نور الدين على المصري فرأته شابا مليحا نقي الخد رشيق القد وهو ابن أربعة عشر سنة بديع الحسن والجمال والظرف والدلال كأنه البدر اذا بدر في ليلة أربعة عشر بجبين أزهر وخد أحمر وعنق كالمرمر وأسنان كالجوهر وريق أحلى من السكر كما قال فيه بعض واصفيه

بدت لتحاكي حسنه وجماله * بدور وغزلان فقلت لها اقفي
رويدك يا غزلان لا تتشبهي * بهـذا ويا أقمار لا تتكلفي

(وما أحسن قول بعض الشعراء)

ومهفهف من شعره وجبينه * تغدو الورى في ظلمة وضياء
لا تنكروا الخال الذي في خده * كل الشقيق بنقطة سـوداء

فلما نظرت تلك الجارية الى نور الدين حال بينها وبين عقلها ووقع في خاطرها موقعا عظيما وتعلق قلبها بمحبته فالتفتت الى الدلال وقالت له هل هذا الشاب التاجر الذي هو جالس بين التجار وعليه الفرجية الجوخ العودي ما زاد في ثمني شيأ فقال لها الدلال ياسيدة الملاح ان هذا الشاب غريب مصري ووالده من أكابر التجار بمصر وله الفضل على جميع تجارها وأكابرها وله مدة يسيرة في هذه المدينة وهو مقيم عند رجل من أصحاب أبيه ولم يتكلم فيك بزيادة ولا نقصان فلما سمعت الجارية كلام الدلال نزعت من أصبعها خاتم ياقوت ثمينا وقالت للدلال أوصلني عند هذا الشاب المليح فان اشتراني كان هذا الخاتم لك في نظير تعبك في هـذا اليوم معنا ففرح الدلال وتوجه بها الى نور الدين فلما صارت عنده تأملته فرأته كأنه بدر تمام لانه ظريف الجمال رشيق القـد والاعتدال كما قال فيه بعض واصفيه

صفا في وجهه ماء الجمال * ومن الحاظه رمى النبال * ويشرب كل صب ان سقاه
بين صدوده والوصل حالي * فغرته وقامته وعشقي * كمال في كمال في كمال
وان غلا ثل الاثواب منه * مزررة على طوق الهلال * ومقلته وخاله ودمعي
ليال في ليال في ليالي * وحاجبه وطلعته وجسمي * هلال في هلال في هلال
وطافت مقلتاه بكاس خمر * على العشاق ان عمر حلالي * وارشفني على ظمأ زلالا
باسم ثغره يوم الوصال * فقتلي عنده ودمي لديه * حلال في حلال في حلال
ثم ان الجارية نظرت الى نور الدين وقالت له يا سيدي بالله عليك اما انا مليحة فقال
لها يا سيدة الملاح وبدر كل كوكب لاح وهل في الدنيا احسن منك فقالت له الجارية
ولاي شيء رأيت التجار كلهم زادوا في ثمني وانت ساكت ما تكلمت بشيء ولا زدت في
ثمني دينارا واحدا كانني ما اعجبتك يا سيدي فقال لها يا سيدتي لو كنت في بلدي كنت
اشتريتك بجميع ما تملكه يدي من المال فقالت له يا سيدي انا ما قلت لك اشترني
على غير مرادك ولكن لو زدت في ثمني شيأ لجبرت بخاطري ولو كنت لا تشتري لاجل ان
تقول التجار لولا ان هذه الجارية مليحة ما زاد فيها هذا التاجر المصري لان اهل مصر لهم
خبرة بالجواري فعند ذلك استحى نور الدين من كلام الجارية الذي ذكرته واحمر وجهه
وقال للدلال كم بلغ ثمن هذه الجارية قال بلغ ثمنها تسعمائة وخمسين دينارا غير الدلالة
واما قانون السلطان فانه على البائع فقال نور الدين للدلال خلها على بالف دينار دلالة
وثمنا فبادرت الجارية وتركت الدلال وقالت بعت نفسي لهذا الشاب المليح بالف دينار
فسكت نور الدين فقال واحد بعناه وقال آخر تستاهل وقال آخر ملعون ابن ملعون
من يزيد بعد هذا وقال آخر والله انهما يصلحان لبعضهما فلم يشعر نور الدين الا والدلال
احضر القضاة والشهود وكتبوا عقد المبيع والشراء في ورقة وناولها لنور الدين وقال له
تسلم جاريتك الله يجعلها مباركة عليك لا تصلح الا لك ولا تصلح انت الا لها وانشد الدلال
هذين البيتين أتته السعادة منقادة * اليه تجرجر اذيالها
فلم تك تصلح الا له * ولم يك يصلح الا لها
فعند ذلك استحى نور الدين من التجار وقام من وقته وساعته ووزن الالف دينار التي كان
وضعها وديعة عند العطار صاحب ابيه واخذ الجارية واتى بها الى البيت الذي اسكنه فيه
الشيخ العطار فلما دخلت الجارية البيت رأت فيه بساطا خلقا ونطعا عتيقا فقالت له
يا سيدي هل انا ما لي منزلة عندك حتى تجعلني في غير بيتك الاصلي الذي فيه مصالحك
ولاي شيء ما دخلت بي عند ابيك فقال لها نور الدين والله يا سيدة الملاح ما هذا بيتي

الذي أنا فيه ولكنه ملك شيخ عطار من أهل هذه المدينة وقد أخلاه لي وأسكنني فيه وقد قلت لك انني غريب وانني من أولاد مدينة مصر فقالت له الجارية ياسيدي أقل البيوت يكفي الى أن تطلع الى بلادك ولكن ياسيدي بالله عليك أن تقوم وتأتي لنا بشيء من اللحم المشوي والمدام والنقل والفاكهة فقال لها نور الدين والله ياسيدة الملاح ما كان عندي من المال غير الالف دينار التي وزنتها في ثمنك ولا أملك غير تلك الدنانير شيأ من المال وكان معي بعض دراهم صرفتها بالامس فقالت له أما لك في هذه المدينة صديق تقترض منه خمسين درهما وتأتيني بها حتى أقول لك أي شيء تفعل بها فقال لها مالي صديق سوى العطار ثم قام من وقته وتوجه الى العطار وقال له السلام عليك ياعم فرد عليه السلام وقال له ياولدي أي شيء اشتريت بالالف دينار في هذا اليوم فقال له اشتريت بها جارية فقال له ياولدي هل أصابك جنون حتى تشتري جارية واحدة بالف دينار ياليت شعري ما جنس هذه الجارية فقال له نور الدين ياعم انها جارية من أولاد الافرنج فقال له الشيخ اعلم ياولدي ان خيار أولاد الافرنج عندنا في هذه المدينة ثمنها مائة دينار ولكن والله ياولدي قد عملت عليك حيلة في هذه الجارية فان كنت أحببتها فبت عندها في هذه الليلة واقض غرضك منها واصبح فانزل بها السوق وبعها ولو كنت تخسر فيها مائة دينار وقدر أنها غرقت في البحر أو طلع عليك اللصوص في الطريق فقال نور الدين كلامك صحيح ولكن ياعم أنت تعرف أنه ما كان معي غير الالف دينار التي اشتريت بها هذه الجارية ولم يبق معي شيء أنفقه ولا درهم واحد واني أريد من فضلك واحسانك أن تقرضني خمسين درهما أنفقها الى غد فابيع الجارية وأردها لك من ثمنها فقال الشيخ أعطيك ياولدي على الرأس والعين ثم وزن له خمسين درهما وقال له ياولدي أنت شاب صغير السن وهذه الجارية مليحة وربما تعلق بها قلبك فما يهون عليك أن تبيعها وأنت ما تملك شيأ تنفقه فتفرغ منك هذه الخمسون درهما فتأتيني فاقرضك أول مرة وثاني مرة وثالث مرة الى عشرة مرات فاذا أتيتني بعد ذلك فلا أرد عليك السلام الشرعي وتضيع محبتنا مع والدك ثم ناوله الشيخ خمسين درهما فأخذها نور الدين وأتى بها الى الجارية فقالت له ياسيدي رح الى السوق في هذه الساعة وهات لنا بعشرين درهما حريرا ملونا خمسة ألوان وهات لنا بثلاثين درهما لحما وخبزا وفاكهة وشرابا ومشموما فعند ذلك ذهب نور الدين الى السوق واشترى كل ما طلبته تلك الجارية وأتى به اليها فقامت من وقتها وساعتها وشمرت عن يديها وطبخت طعاما فاخرا وأتقنته غاية الاتقان ثم قدمت له الطعام فأكل وأكلت معه حتى اكتفيا ثم قدمت المدام وشربت

هي وإياه ولم تزل تسقيه وتؤانسه الى أن سكر فقامت الجارية من وقتها وساعتها وأخرجت من بقجتها جرابا من أديم طائفي وفتحته وأخرجت منه مسمارين وقعدت فعملت شغلها الى أن فرغ فصار زنارا مليحا فلفته في خرقة بعد صقله وتنظيفه وجعلته تحت المخدة ثم قامت فتعرت ونامت بجانب نور الدين وكبسته فانتبه من نومه فوجد بجانبه صبية كانها فضة نقية أنعم من الحرير وأطرى من الالية وهي أشهر من علم وأحسن من حمر النعم خماسية القد قاعدة النهد بحواجب كانها قسي السهام وعيون كانها عيون غزلان وخدود كانها شقائق النعمان وبطن خماصية الاعكان وسرة تسع أوقية من دهن البان وفخذين كانهما مخدتان محشوتان من ريش النعام وبينهما شيء يكل عن وصفه اللسان وتنسكب عند وصفه العبرات فكان الشاعر قصدها بهذه الابيات

فمن شعرها الليل ومن فرقها الفجر * ومن خدها ورد ومن ريقها الخمر
ومن وصلها المأوى ومن هجرها اللظى * ومن ثغرها در ومن وجهها البدر

(وما أحسن قول بعض الشعراء)

بدت قمرا وماست غصن بان * وفاحت عنبرا ورنت غزالا كان الحزن مشغوف بقلبي
فساعة هجرها يجد الوصالا * لها وجه يفوق على الثريا * ونور جبينها فاق الهلالا

وقال بعضهم أيضا سفرن بدورا وانجلين أهلة * ومسن غصونا والتفتن جا ذرا
وفيهن كحلاء العيون لحسنها * تود الثريا أن تكون لها ثرى

فعند ذلك التفت نور الدين من وقته وساعته الى تلك الجارية وضمها الى صدره ومص شفتها الفوقية بعد ان مص التحتية ثم زرق اللسان بين الشفتين وقام اليها فوجدها درة ماثقبت ومطية لغيره ماركبت فازال بكارتها ونال منها الوصال وانعقدت بينهما المحبة بلا انفكاك ولا انفصال وتابع في خدها تقبيلا كوقع الحصى في الماء وهزا كطعن الرماح في المهرة الشعواء لان نور الدين كان مشتاقا الى اعتناق الحور ومص الثغور وغمز الخصور وعض الخدود وضم النهود مع حركات مصرية وغنج يمانيه وشهيق حبشيه وفتور هنديه وغلمة نوبيه وتضجر ريفيه وأنين دمياطيه وحرارة صعيديه وفترة اسكندريه وكانت هذه الجارية جامعة لهذه الخصال مع فرط الجمال والدلال كما قال فيها الشاعر المفضال

هذي التي أنا طول الدهر ناسيها * فلا جنحت الى من ليس يدنيها
كانها البدر في تكوين صورتها * سبحان خالقها سبحان باريها
ان كان ذنبي عظيما في محبتها * فليس لي توبة يوما أرجيها

قد صيرتني حزينا ساهرا دنفا * والقلب قد حار فكرا في معانيها
وأنشدت بيت شعر ليس يعرفه * الا فتى لقوافي الشعر يرويها
لا يعرف الشوق الا من يكابده * ولا الصبابة الا من يعانيها

ثم نام نور الدين مع تلك الجارية الى الصباح في لذة وانشراح لابسين حلل العناق محكمة الازرار آمنين طوارق الليل والنهار وقد باتا على أحسن حال ولم يخشيا من أحد الوصال ولا كثرة القيل والقال كما قال فيهما الشاعر المفضال

زر من تحب ودع مقالة حاسد * ليس الحسود على الهوى بمساعد
لم يخلق الرحمن أحسن منظرا * من عاشقين على فراش واحد
متعانقين عليهما حلل الرضا * متوسدين بمعصم وبساعد
واذا تألفت القلوب على الهوى * فالناس تضرب في حديد بارد
يا من يلوم على الهوى أهل الهوى * هل تستطيع صلاح قلب فاسد
واذا صفا لك من زمانك واحد * نعم الصديق وعش بذاك الواحد

فلما أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح انتبه نور الدين من نومه فرآها أحضرت الماء فاغتسل هو واياها وأدى ما عليه من الصلاة لربه ثم أتته بما تيسر من المأكول والمشروب فأكل وشرب ثم أدخلت الجارية يدها تحت المخدة وأخرجت الزنار الذي صنعته بالليل وناولته اياه وقالت له يا سيدي خذ هذا الزنار فقال لها من أين هذا الزنار فقالت يا سيدي هو الحرير الذي اشتريته البارحة بالعشرين درهما فقم واذهب به الى سوق العجم وأعطه الدلال لينادي عليه ولا تبعه الا بعشرين دينارا سالمة ليدك فقال لها نور الدين يا سيدة الملاح هل شئ بعشرين درهما يباع بعشرين دينارا يعمل في ليلة واحدة فقالت له الجارية يا سيدي أنت ما تعرف قيمة هذا ولكن اذهب به الى السوق وأعطه للدلال فاذا نادى عليه الدلال ظهرت لك قيمته فعند ذلك أخذ نور الدين الزنار من الجارية وأتى به الى سوق الاعاجم وأعطى الزنار للدلال وأمره أن ينادي عليه وقعد نور الدين على مصطبة دكان فغاب الدلال عنه ساعة ثم أتى اليه وقال له يا سيدي قم فاقبض ثمن زنارك فقد بلغ عشرين دينارا سالمة ليدك فلما سمع نور الدين كلام الدلال تعجب غاية العجب واهتز من الطرب وقام ليقبض العشرين دينارا وهو ما بين مصدق ومكذب فلما قبض الدنانير ذهب من ساعته واشترى بها كلها حريرا من سائر الالوان لتعمله الجارية كله زنانير ثم رجع الى البيت وأعطاها الحرير وقال لها اعمليه كله زنانير وعلميني أيضا حتى أعمل معك فاني طول عمري ما رأيت صنعة أحسن من هذه الصنعة ولا أكثر مكسبا منها قط

وانها والله أحسن من التجارة بالف مرة فضحكت الجارية من كلامه وقالت له ياسيدي نور الدين امض الى صاحبك العطار واقترض منه ثلاثين درهما وفي غد ادفع له من ثمن الزنار مع الخمسين درهما التي اقترضتها منه قبلها فقام نور الدين وأتى الى صاحبه العطار وقال له ياعم أقرضني ثلاثين درهما وفي غد ان شاء الله تعالى اجيء لك بالثمانين درهما جملة واحدة فعند ذلك وزن له الشيخ العطار ثلاثين درهما فأخذها نور الدين وأتى بها الى السوق واشترى بها لحما وخبزا ونقلا وفاكهة ومشموما ومشروبا كما فعل بالامس وأتى به الى الجارية وكان اسم تلك الجارية مريم الزنارية فأخذت اللحم وقامت من وقتها وساعتها وهيأت طعاما فاخرا ووضعته قدام سيدها نور الدين ثم بعد ذلك هيأت سفرة المدام وتقدمت هي واياه وصارت تملأ وتسقيه وهو يملأ ويسقيها فلما لعب المدام بعقلهما أعجبها حسن لطافته ورقة معانيه فانشدت هذين البيتين

أقول لاهيف حيا بكاس * لها من مسك نكهته ختام

أمن خديك تعصر قال كلا * متى عصرت من الورد المدام

ولم تزل تلك الجارية تنادم نور الدين وينادمها وتعاطيه الكاس والطاس وتطلب أن يملأ لها ويسقيها ما تطيب به الانفاس واذا وضع يده عليها تمتنع منه دلالا وقد زادها السكر حسنا وجمالا وأنشدت هذين البيتين

وهيفاء تهوى الراح قالت لصبها * بمجلس أنس وهو يخشى ملالها

اذا لم تدر كاس المدام وتسقني * أبيتك مهجورا فخاف مـلالها

ولم يزالا كذلك الى ان غلب عليه السكر ونام فقامت هي من وقتها وساعتها وعملت شغلها في الزنار على جري عادتها ولما فرغت من عملها فيه أصلحته ولفته في ورقة ثم نزعت ثيابها ونامت بجانبه الى الصباح وكان ما بينهما ما كان من الوصال ثم قام نور الدين وقضى شغله وناولته الزنار وقالت له امض به الى السوق وبعه بعشرين دينارا كما بعت نظيره بالامس فعند ذلك أخذه ومضى به الى السوق وباعه بعشرين دينارا وأتى الى العطار ودفع له الثمانين درهما وشكره على فعاله معه ودعا له فقال له يا ولدي هل أنت بعت الجارية فقال نور الدين كيف أبيع روحي من جسدي ثم انه حكى له الحكاية من المبتدا الى المنتهى وأخبره بجميع ما جرى له من أوله الى آخره ففرح الشيخ العطار بذلك الفرح الشديد الذي ما عليه من مزيد وقال له والله يا ولدي انك قد فرحتني وان شاء الله تعالى أنت بخير دائما فاني أود لك الخير لمحبتي لوالدك وبقاء محبتي معه ثم ان نور الدين فارق الشيخ العطار وراح من وقته وساعته الى السوق واشترى اللحم والفاكهة

والشراب وجميع ما يحتاج اليه على مجرى العادة واتى به الى تلك الجارية ولم يزل نور الدين هو والجارية فى أكل وشرب ولعب وانشراح وود ومنادمة مدة سنة وهى تعمل فى كل ليلة زنارا فيبيعه بعشرين دينارا ينفق منها ما يحتاج اليه والباقى يعطيه لها تحفظه عندها الى وقت الحاجة اليه وبعد السنة قالت له يا سيدى نور الدين اذا بعت الزنار فى غد فخذ لى من ثمنه حريرا ملونا ستة ألوان فانه قد خطر ببالى أن أصنع لك منديلا تجعله على كتفك ما فرحت بمثله أولاد التجار ولا أولاد الملوك الكبار فعند ذلك خرج نور الدين الى السوق وباع الزنار واشترى الحرير الملون كما ذكرت له الجارية وجاء به اليها فقعدت مريم الزنارية تصنع فى المنديل جمعة كاملة لانها كلما فرغت من زنار فى ليلة تعمل فى المنديل شيأ الى أن خلصته ثم ناولته لنور الدين فجعله على كتفه وصار يمشى به فى السوق فصار التجار والناس وأكابر البلد يقفون عنده صفوفا يتفرجوا على حسنه وعلى ذلك المنديل وحسن صنعته فاتفق ان نور الدين كان نائما ذات ليلة من الليالى فانتبه من منامه فوجد جاريته تبكى بكاء شديدا وتنشد هذه الابيات

دنا فراق الحبيب واقتربا * واحربا للفراق واحربا
تفتتت مهجتى فوا أسفى * على ليال مضت لنا طربا
لا بد أن ينظر لنا الحسود * بعين سوء ويبلغ الاربا
فما علينا أضر من حسد * ومن عيون الوشاة والرقبا

فقال لها نور الدين يا سيدتى مريم ما لك تبكين فقالت له أبكى من ألم الفراق فقد أحس قلبى به فقال لها يا سيدة الملاح ومن الذى يفرق بيننا وانا الآن أحب الخلق اليك وأعشقهم لك فقالت له ان عندى أضعاف ما عندك ولكن حسن الظن بالليالى يوقع الناس فى الاسف وقد أحسن الشاعر حيث قال

أحسنت ظنك بالايام اذ حسنت * ولم تخف سوء ما يأتى به القدر
وسالمتك الليالى فاغتررت بها * وعند صفو الليالى يحدث الكدر
وفى السماء نجوم لا عداد لها * وليس يكسف الا الشمس والقمر
وكم على الارض من خضراء يابسة * وليس يرجم الا ما له ثمر
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف * وتستقر بأقصى قاعه الدرر

ثم قالت يا سيدى نور الدين اذا كنت تحرص على عدم الفراق فخذ حذرك من رجل افرنجى أعور العين اليمنى أعرج الرجل الشمال وهو شيخ أغبر الوجه مكلثم اللحية لانه هو الذى يكون سببا لفراقنا وقد رأيته اتى فى تلك المدينة واظن انه ما جاء الا فى طلبى فقال لها نور الدين يا سيدة الملاح ان وقع بصرى عليه قتلته ومثلت به فقالت له مريم

يا سيدي لا تقتله ولا تكلمه ولا تبايعه ولا تشاره ولا تعامله ولا تجالسه ولا تماشه ولا تحدث معه بكلام قط وادع الله أن يكفينا شره ومكره فلما أصبح الصباح أخذ نور الدين الزنار وذهب به الى السوق وجلس على مصطبة دكان يتحدث هو وأولاد التجار فأخذته سنة من النوم فنام على مصطبة الدكان فبينما هو نائم واذا بذلك الافرنجي مر على ذلك السوق في تلك الساعة ومعه سبعة من الافرنج فرأى نور الدين نائما على مصطبة الدكان ووجهه ملفوف بذلك المنديل وطرفه في يده فقعد الافرنجي عنده وأخذ طرف المنديل وقلبه في يده واستمر يقلب فيه ساعة فاستحس به نور الدين فافاق من النوم فرأى الافرنجي الذي وصفته الجارية بعينه جالسا عند رأسه فصرخ عليه نور الدين صرخة عظيمة أرعبته فقال الافرنجي لاي شئ تصرخ علينا هل نحن أخذنا منك شيأ فقال له نور الدين والله يا ملعون لو كنت أخذت مني شيأ لكنت ذهبت بك الى الوالي فقال له الافرنجي يا مسلم بحق دينك وما تعتقده أن تخبرني من أين لك هذا المنديل فقال له نور الدين هو شغل والدتي عملته لي بيدها فقال له الافرنجي أتبيعه وتأخذ ثمنه مني فقال له نور الدين والله يا ملعون لا أبيعه لك ولا لغيرك فانها ما عملته الا على اسمي ولم تعمل غيره فقال بعه لي وأنا أعطيك ثمنه في هذه الساعة خمسمائة دينار ودع التي عملته تعمل لك غيره أحسن منه فقال له نور الدين أنا ما أبيعه أبدا لانه لا نظير له في هذه المدينة فقال له الافرنجي يا سيدي وهل لا تبيعه بستمائة دينار من الذهب الخالص ولم يزل يزيد مائة بعد مائة الى ان أوصله الى تسعمائة دينار فقال يفتح الله على بغير بيعه أنا ما أبيعه ولا بالفي دينار ولا باكثر أبدا ولم يزل ذلك الافرنجي يرغب نور الدين بالمال في ذلك المنديل الى أن وصله الى ألف دينار فقال له جماعة من التجار الحاضرين نحن بعناك هذا المنديل فادفع ثمنه فقال له نور الدين أنا ما أبيعه والله فقال له تاجر من التجار اعلم يا ولدي ان هذا المنديل قيمته مائة دينار ان كثرت ووجد له راغب وان هذا الافرنجي دفع فيه ألف دينار جملة فربحك تسعمائة دينار فأي ربح تريد أكبر من هذا الربح فالرأي عندي أن تبيع هذا المنديل وتأخذ الالف دينار وتقول للتي عملته تعمل لك غيره أو أحسن منه وتربح أنت الالف دينار من هذا الافرنجي الملعون عدو الدين فاستحى نور الدين من التجار وباع للافرنجي المنديل بالف دينار ودفع له الثمن في الحضرة وأراد نور الدين أن ينصرف ويمضي الى جاريته مريم ليبشرها بما كان من أمر الافرنجي فقال الافرنجي يا جماعة التجار احجزوا نور الدين فانكم واياه ضيوفي في هذه الليلة فان عندي بتية خمر رومي من معتق الخمر وخروفا سمينا وفاكهة ونقلا ومشموما

فأنتم تؤانسونني في هذه الليلة ولا يتأخر أحد منكم فقال التجار يا سيدي نور الدين نشتهي ان تكون معنا في مثل هذه الليلة انتحدث معك فمن فضلك واحسانك أن تكون معنا فنحن واياك ضيوف عند هذا الافرنجي لانه رجل كريم ثم انهم حلفوا عليه بالطلاق ومنعوه بالغصب عن الرواح الى بيته ثم قاموا من وقتهم وساعتهم وقفلوا الدكاكين وأخذوا معهم نور الدين وذهبوا مع الافرنجي الى قاعة مطيبة بليوانين فاجلسهم فيها ووضع بين أيديهم سفرة غريبة الصنع بديعة العمل فيها صورة كاسر ومكسور وعاشق ومعشوق وسائل ومسؤل ثم وضع الافرنجي على تلك السفرة الاواني النفيسة من الصيني والبلور وكلها مملوءة بنفائس النقل والفاكهة والمشموم ثم قدم لهم الافرنجي بتية مملوءة من الخمر الرومي العتيق وأمر بذبح خروف سمين ثم ان الافرنجي أوقد النار وصار يشوي من ذلك اللحم و يطعم التجار و يسقيهم من ذلك الخمر و يغمزهم على نور الدين أن ينزلوا عليه بالشراب فلم يزالوا يسقونه حتى سكر وغاب عن وجوده فلما رآه الافرنجي مستغرقا في السكر قال آنستنا يا سيدي نور الدين في هذه الليلة فمرحبا بك ثم مرحبا بك وصار الافرنجي يؤانسه بالكلام ثم تقرب منه وجلس بجانبه وسارقه في الحديث ساعة زمانية ثم قال له يا سيدي نور الدين هل تبيعني جاريتك التي اشتريتها بحضرة هؤلاء التجار بالف دينار من مدة سنة وأنا أعطيك في ثمنها الآن خمسة آلاف دينار بزيادة أربعة آلاف فأبى نور الدين ولم يزل ذلك الافرنجي يطعمه و يسقيه و يرغبه في المال حتى أوصل ثمن الجارية الى العشرة آلاف دينار فقال نور الدين وهو في سكره قدام التجار بعتك اياها هات العشرة آلاف دينار ففرح الافرنجي بذلك القول فرحا شديدا وأشهد عليه التجار و باتوا في أكل وشرب وانشراح الى أن أصبح الصباح فصاح الافرنجي على غلمانه وقال لهم ائتوني بالمال فأحضروا المال فعد لنور الدين العشرة آلاف دينار نقدا وقال له يا سيدي نور الدين تسلم هذا المال ثمن جاريتك التي بعتها الى الليلة بحضرة هؤلاء التجار المسلمين فقال نور الدين يا ملعون أنا ما بعتك شيأ وأنت تكذب علي وليس عندي جوار فقال له الافرنجي قد بعتني جاريتك وهؤلاء التجار يشهدون عليك بالبيع فقال التجار كلهم نعم يا نور الدين أنت بعته جاريتك قدامنا ونحن نشهد عليك انك بعته اياها بعشرة آلاف دينار قم فاقبض الثمن وسلمه الجارية والله يعوضك خيرا منها أتكره يا نور الدين انك اشتريت جارية بالف دينار ولك سنة تتمتع بحسنها وجمالها وتتلذذ في كل يوم وليلة بمنادمتها و وصالها و بعد ذلك ربحت من هذه الجارية تسعة آلاف دينار فوق ثمنها الاصلي وفي كل يوم تعمل لك

زنارا تبيعه بعشرين دينارا و بعد ذلك كله تنكر البيع وتستقل الربح أى ربح أكثر من
هذا الربح أى مكسب أكثر من هذا المكسب فان كنت تحبها فها أنت قد شبعت منها
فى هذه المدة فاقبض الثمن واشتر غيرها أحسن منها أو نزوجك بنتا من بناتنا بمهر أقل
من نصف هذا الثمن وتكون البنت أجمل منها ويصير معك باقى المال رأس مال فى
يدك ولم يزل التجار يتكلمون مع نور الدين بالملاطفة والمخادعة الى أن قبض العشرة
آلاف دينار ثمن الجارية وأحضر الافرنجى من وقته وساعته القاضى والشهود
فكتبوا له حجة شراء الجارية التى اسمها مريم الزنارية من نور الدين هذا ما كان من أمر
نور الدين (وأما) ما كان من أمر مريم الزنارية فانها قعدت تنتظر سيدها نور الدين
جميع ذلك اليوم الى المغرب ومن المغرب الى العشاء ومن العشاء الى نصف الليل فلم
يعد اليها سيدها المذكور فجزعت وصارت تبكى بكاء شديدا فسمعها الشيخ العطار وهى
تبكى فارسل اليها زوجته فدخلت عليها فرأتها تبكى فقالت لها يا سيدتى مالك تبكين
فقالت لها يا أمى انى قعدت أنتظر مجىء سيدى نور الدين فما جاء الى هذا الوقت وأنا
خائفة أن يكون أحد عمل عليه حيلة من شأنى لاجل أن يبيعنى فدخلت عليه الحيلة
وباعنى فقالت لها زوجة العطار يا سيدتى مريم لو أعطوا سيدك فيك ملء هذه القاعة
ذهبا لم يبعك لما أعرفه من محبته لك ولكن يا سيدتى مريم ربما يكون جماعة أتوا من
مدينة مصر من عند والده فعمل لهم عزومة فى المحل الذى هم نازلون فيه واستحى أن
يأتى بهم الى هذا المحل لانه لا يسعهم أو لان مرتبتهم أقل من أن يجىء بهم الى البيت أو
أحب أن يخفى أمرك عنهم فبات عندهم الى الصباح ويأتى ان شاء الله تعالى اليك فى
غد بخير فلا تحملى نفسك هما ولا غما فهذا سبب غيابه عنك فى هذه الليلة وها أنا أبيت
عندك وأسليك الى أن يأتى اليك سيدك ثم ان زوجة العطار صارت تلاطف مريم
وتسليها بالكلام الى أن ذهب الليل كله فلما أصبح الصباح نظرت مريم الى سيدها نور
الدين وهو داخل من الزقاق وذلك الافرنجى سائر وراءه وجماعة التجار حواليه فلما
رأتهم مريم ارتعدت فرائصها واصفر لونها وصارت ترتعد كأنها سفينة فى وسط بحر فلما
رأتها امرأة العطار قالت لها يا سيدتى مريم مالى أراك قد تغير حالك واصفر وجهك
فقالت لها الجارية يا سيدتى والله ان قلبى قد أحس بالفراق وبعد التلاق ثم ان
الجارية تأوهت بتصاعد الزفرات وأنشدت هذه الابيات

لا تركنن الى الفراق * فانه مر المذاق * الشمس عند غروبها
تصفر من ألم الفراق * وكذاك عند شروقها * تبيض من فرح التلاق

ثم ان مريم الزنارية بكت البكاء الشديد الذى ما عليه مزيد وتيقنت الفراق وقالت لزوجة العطار ياسيدتى اما قلت لك ان سيدى نور الدين قد عملت عليه حيلة من اجل بيعى فما اشك فى انه باعنى فى هذه الليلة لهذا الافرنجى وقد كنت حذرته منه ولكن لا ينفع حذر من قدر فقد بان لك صدق قولى فبينما هى وزوجة العطار فى الكلام واذا بسيدها نور الدين قد دخل عليهما فى تلك الساعة فنظرت اليه الجارية فرأته قد تغير لونه وتشوش ذهنه ولاح على وجهه اثر الحزن والندم فقالت له ياسيدى نور الدين جعلت فداك ما بالك وما الذى تغير منه حالك كانك بعتنى فبكى بكاء شديدا وتأوه وتنفس الصعداء وانشد هذه الابيات

هى المقادير فما يغنى الحذر * ان كنت أخطأت فما أخطا القدر
اذا اراد الله امرا بامرئ * وكان ذا عقل وسمع وبصر * اصم اذنيه واعمى عينه
وسل منه عقله سل الشعر * حتى اذا انفذ فيه حكمه * رد اليه عقله ليعتبر
لا تقل فيما جرى كيف جرى * كل شئ بقضاء وقدر

ثم ان نور الدين اعتذر الى الجارية وقال لها والله ياسيدتى مريم انه قد جرى القلم بما قدر الله وحكم والناس قد عملوا على حيلة من اجل بيعك فدخلت على الحيلة فيما تلك وقد فرطت فيك اعظم تفريط ولكن عسى من حكم بالفراق ان يمن بالتلاق فقالت له قد حذرتك من هذا وكان فى وهمى ثم ضمته الى صدرها وقبلته بين عينيه وانشدت هذه الابيات

وحق هواكم ما سلوت ودادكم * ولو تلفت روحى هوى وتشوقا
انوح وابكى كل يوم وليلة * كما ناح قمرى على شجر النقا
تنغص عيشى بعدكم يا احبتى * متى غبتم عنى فما لى ملتقى

فبينما هما على هذه الحالة يتناشدان الاشعار ويسكبان الدموع الغزار واذا بالافرنجى قد طلع عليهما وتقدم ليقبل ايدى السيدة مريم فلطمته بكفها على خده وقالت له ابعد يا ملعون فما زلت خلفى حتى خدعت سيدى ولكن يا عدو الله ان شاء الله تعالى لا يكون الا خيرا وارى كيدك فى نحرك فضحك الافرنجى من قولها وتعجب من فعلها واعتذر اليها وقال لها ياسيدتى مريم اى شئ ذنبى انا وانما سيدك نور الدين هذا هو الذى باعك برضا نفسه وطيب خاطره وانه وحق المسيح لو كان يحبك ما فرط فيك ولولا انه فرغ غرضه منك ما باعك وقد قال بعض الشعراء

من ملنى فليمض عنى عامدا * ان عدت اذكره فلست براشد
ما ضاقت الدنيا على باسرها * حتى ترانى راغبا فى زاهد

وقد كانت هذه الجارية بنت ملك افرنجة وهي مدينة واسعة الجهات كثيرة الصنائع والغرائب والنباتات تشبه مدينة القسطنطينية وقد كان لخروج تلك الجارية من مدينة أبيها حديث غريب عجيب نسوقه على الترتيب حتى يطرب منه السامع ويطمئن وذلك انها تربت عند أبيها وأمها في العز والدلال والانس والكمال وتعلمت الفصاحة والكتابة والحساب والفروسية والشجاعة وغالب مهمات الصنائع مثل الزركشة والخياطة وصنعة الزنانير والعقادة ورمي الذهب على الفضة وغير ذلك واتقنت صنائع الرجال والنساء حتى صارت ماهرة في كل صناعة فصارت فريدة في عصرها ووحيدة في دهرها وقد أعطاها الله عز وجل من الحسن والجمال والظرف الذي لم يوجد مثله في نساء ولا رجال فخطبها ملوك الجزائر من أبيها وكل من خطبها منه يأبى أن يزوجها له لانه كان يحبها حبا شديدا ولا يقدر على فراقها ساعة واحدة ولم يكن عنده بنت غيرها وكان معه من الاولاد الذكور كثير ولكنه كان مشغوفا بحبها أكثر منهم فاتفق أنها مرضت في بعض السنين مرضا شديدا حتى أشرفت على الهلاك فنذرت على نفسها أنها اذا عوفيت من هذا المرض تزور الدير الفلاني الذي في الجزيرة الفلانية وكان ذلك الدير معظما عندهم وينذرون له النذور ويتبركون به فلما عوفيت مريم من مرضها أرادت أن توفي بنذرها الذي نذرته على نفسها لذلك الدير فارسلها ملك افرنجة الى ذلك الدير في مركب صغيرة وأرسل معها بعضا من بنات أكابر المدينة ومن البطارقة لاجل خدمتها فلما قربت من الدير صادفها مركب من مراكب المسلمين المجاهدين في سبيل الله فاخذوا جميع ما في تلك المركب من البطارقة والبنات والاموال والتحف فباعوا ما أخذوه في مدينة القيروان فوقعت مريم في يد رجل أعجمي تاجر من التجار وقد كان ذلك الاعجمي عنينا لا يأتي النساء ولم تنكشف له عورة على امرأة فجعلها للخدمة ثم ان ذلك الاعجمي مرض مرضا شديدا حتى أشرف على الهلاك وطال عليه المرض مدة شهور فخدمته مريم وبالغت في خدمته الى أن عافاه الله من مرضه فتذكر ذلك الاعجمي منها الشفقة والحنية عليه والقيام بخدمته فاراد أن يكافئها على ما فعلته معه من الجميل فقال لها تمني علي يا مريم فقالت يا سيدي تمنيت عليك أن لا تبيعني الا لمن أريده وأحبه فقال لها نعم لك على ذلك والله يا مريم ما أبيعك الا لمن تريدينه وقد جعلت بيعك بيدك ففرحت فرحا شديدا وكان الاعجمي قد عرض عليها الاسلام فاسلمت وعلمها العبادات فتعلمت من ذلك الاعجمي في تلك المدة أمر دينها وما يجب عليها وحفظها

القرآن وما تيسر من العلوم الفقهية والاحاديث النبوية فلما دخل بها مدينة اسكندرية باعها لمن أرادته وجعل بيعها بيدها كما ذكرنا فأخذها على نور الدين كما أخبرنا هذا ما كان من سبب خروجها من بلادها (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افرنجة فانه لما ملقيه أمر ابنته ومن معها اقامت عليه القيامة وأرسل خلفها المراكب وصحبتهم البطارقة والفرسان والرجال والشجعان فلم يقعوا لها على خبر بعد التفتيش فى جزائر المسلمين ورجعوا الى أبيها بالويل والثبور وعظائم الامور فحزن عليها أبوها حزنا شديدا فارسل خلفها ذلك الاعور اليمين الاعرج الشمال لانه كان أعظم وزرائه وكان جبارا عنيدا ذا حيل وخداع وأمره ان يفتش عليها فى جميع بلاد المسلمين ويشتريها ولو بحمل مركب ذهبا ففتش عليها ذلك الملعون فى جزائر البحار وغالب المدن فلم يقع لها على خبر الى أن وصل الى مدينة اسكندرية وسأل عنها فوقع على خبرها عند نور الدين على المصري فجرى له معه ما جرى وعمل عليه الحيلة حتى اشتراها منه كما ذكرنا بعد الاستدلال عليها بالمنديل الذي لا يحسن صنعته غيرها وكان قد وصى التجار واتفق معهم على خلاصها بالحيلة فلما صارت عنده مكثت فى بكاء وعويل وحزن طويل فقال لها يا سيدتي مريم خلي عنك هذا الحزن والبكاء وقومي معي الى مدينة أبيك ومحل مملكتك ومحل عزك ووطنك لتكوني بين خدمك وغلمانك وحشمك واتركي هذا الذل وهذه الغربة ويكفي ما قد حصل لي من التعب والسفر من أجلك وصرف الاموال فان لي فى السفر والتعب وصرف الاموال نحو سنة ونصف وقد أمرني والدك أن أشتريك ولو بحمل مركب ذهبا ثم ان ذلك الوزير صار يقبل قدميها ويخضع لها ولم يزل يكرر تقبيل يديها وقدميها وهي تزداد فى الغضب عليه وهو مع ذلك منقاد اليها ويفعل ذلك كله أدبا معها واحتراما لشأنها وقد قالت له يا ملعون ان الله سبحانه وتعالى لا يبلغك ما فى مرادك ثم قدم اليها الغلمان فى تلك الساعة بغلة بسرج مزركش واركبوها عليها ورفعوا فوق رأسها سحابة من حرير بعمد من ذهب وفضة وصار الافرنج يمشون حولها حتى طلعوا بها من باب البحر وأنزلوها فى قارب صغير وصاروا يقذفون بها الى أن أوصلوها الى المركب الكبيرة وأنزلوها فيها فعند ذلك نهض الوزير الاعور وقال لبحرية المركب ارفعوا الصاري فرفعوه من وقتهم ونشروا القلوع والاعلام وسافرت بهم تلك المركب هذا كله ومريم تنظر الى ناحية اسكندرية حتى غابت عن عينها فصارت تبكي فى سرها بكاء شديدا وقد سكبت العبرات وأنشدت هذه الابيات

أيا منزل الاحباب هل لك عودة * الينا وما علمي بما الله صانع

فسارت بنا سفن الفراق وأسرعت * وطرفى قريح قد محته المدامع
لفرقة خل كان غاية مقصدى * به يشتفى سقمى وتمحى المواجع
ألا يا الهى كن عليه حليفتى * فمنذلك حقا لاتضيع الودائع

ولم تزل مريم كلما تذكرته تبكى وتنوح فاقبل عليها البطارقة يلاطفونها فلم تقبل منهم كلاما بل شغلها داعى الوجد والغرام وزاد بها النحيب والهيام فاشتدت بها الحسرات وأنشدت هذه الابيات

لسان الهوى فى مهجتى لك ناطق * يخبر عنى أننى لك عاشق
ولى كبد جمر الهوى قد أذابها * وقلبى جريح من فراقك خافق
وكم أكتم الحب الذى قد أذابنى * بجفنى قريح والدموع سوابق

ولم تزل مريم على هذه الحالة لايقر لها قرار ولا يطاوعها اصطبار مدة سفرها هذا ما كان من أمرها هى والوزير الاعور (وأما) ما كان من أمر نور الدين على المصرى فانه بعد نزول مريم المركب وسفرها ضاقت عليه الدنيا وصار لا يقر له قرار ولا يجد له عن فراقها اصطبار فتوجه الى القاعة التى كان مقيما بها هو ومريم فرآها فى وجهه سوداء مظلمة ورأى العدة التى كانت تشتغل عليها الزنانير وثيابها التى كانت على جسدها فضمها الى صدره وبكى وأن لفراق حبيبته واشتكى وفاضت من جفنه العبرات وأنشد هذه الابيات

ترى هل يعود الشمل بعد تشتتى * وبعد توالى حسرتى وتلفتى
فهيهات ما قد كان ليس براجع * فيا هل ترى أحظى بوصل حبيبتى
ويا هل ترى قد يجمع الله شملنا * وتذكر أحبابى عهود مودتى
ويحفظ ودى من يجهلى أضعته * ويرعى عهودى ثم سالف صحبتى
فيا أنا الاميت بعد بعدهم * وهل ترتضى الاحباب يوما منيتى
فيا أسفى ان كان يجدى تأسفى * لقد ذبت وجدا من تزايد حسرتى
وضاع زمان كان فيه تواصلى * فيا هل ترى دهرى يجود بعتبتى
فيا قلب زد وجدا ويا عين أهملى * دموعا ولا تبقى الدموع بمقلتى
ويا بعد أحبابى وفقد تصبرى * لقد قل أنصارى وزادت بليتى
سألت اله العالمين يجود لى * بعود حبيبى والوصال كعادتى

ثم ان نور الدين بكى البكاء الشديد الذى ما عليه من مزيد ونظر الى زوايا القاعة وأنشد هذين البيتين

أرى آثارهم فأموت شوقا * وأسكب فى مواطنهم دموعى
واسأل من قضى بالبعد عنهم * يمن على يوما بالرجوع

ثم ان نور الدين نهض من وقته وساعته وقفل باب الدار وخرج يجرى الى البحر وصار يتأمل فى موضع المركب التى سافرت بمريم فبكى وصعد الزفرات وأنشد هذه الابيات

سلام عليكم ليس لى عنكم غنا * وانى على الحالين فى القرب والبعد
أحن اليكم كل وقت وساعة * وأشتاقكم شوق العطاش على الورد
وعندكم سمعى ولبى وناظرى * وتذكاركم عندى ألذ من الشهد
فيا أسفى لما استقلت ركابكم * وجدت بكم تلك السفينة عن قصد

ثم ان نور الدين ناح وبكى وأن وحن واشتكى ونادى يا مريم يا مريم هل كانت رؤيتى لك فى المنام أم اضغاث أحلام ولما زاد به الحزن والحسرات أنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد عينى تراكم * وأسمع من قرب الديار نداكم
وتجمعنا الدار التى آنست بنا * وأعطى منى قلبى وأنتم مناكم
خذوا العظامى أين سرتم محفة * وأين حللتم فادفنونى حداكم
فلو كان لى قلبان عشت بواحد * وأترك قلبا مغرما فى هواكم
ولو قيل لى ماذا على الله تشتهى * لقلت رضا الرحمن ثم رضاكم

فبينما نور الدين على هذه الحالة يبكى ويقول يا مريم واذا بشيخ قد طلع من مركب وأقبل عليه فرآه يبكى وينوح وينشد هذين البيتين

يا مريم الحسن عودى ان لى مقلا * سحائب المزن تجرى من سواكبها
واستخبرى عزلى دون الانام ترى * أجفان عينى غرقى فى كواكبها

فقال له الشيخ يا ولدى كأنك تبكى على الجارية التى سافرت البارحة مع الافرنجى فلما سمع نور الدين كلام الشيخ خر مغشيا عليه ساعة زمانية ثم أفاق وبكى البكاء الشديد الذى ما عليه مزيد وأنشد هذه الابيات

فهل بعد هذا البعد يرجى وصالها * ولذة أنسى قد يعود كمالها
فان بقلبى لوعة وصبابة * ويزعجنى قيل الوشاة وقالها
أقيم نهارى باهتا متحيرا * وفى الليل أرجو أن يزور خيالها
فوالله لا أسلو عن العشق ساعة * وكيف ونفسى فى الوشاة ملالها
منعمة الاطراف مهضومة الحشا * لها مقلة فى القلب منى نبالها
يحاكى قضيب البان فى الروض قدها * ويخجل ضوء الشمس حسنا جمالها
ولولا أخاف الله جل جلاله * لقلت لذات الحسن جل جلالها

فلما نظر ذلك الشيخ الى نور الدين ورأى جماله وقده واعتداله وفصاحة لسانه وإطفاء

اقتنائه حزن قلبه عليه ورق لحاله وكان ذلك الشيخ رئيس مركب مسافرة الى مدينة تلك الجارية وفيها زيادة عن مائة تاجر من المسلمين فقال له اصبر ياولدى ولا ترى الاخير ان شاء الله تعالى أوصلك اليها فقال له نور الدين متى السفر ياسيدى فقال الرئيس قد بقى لنا ثلاثة أيام ونسافر فى خير وسلامة فلما سمع نور الدين كلام الرئيس فرح فرحا شديدا وشكر فضله واحسانه وبعد ذلك تذكر أيام الوصال واجتماع الشمل بجاريته ذات الحسن والجمال فبكى بكاء شديدا وأنشد هذه الابيات

فهل يجمع الرحمن لى ولكم شملا * وهل أبلغ المقصود ياسادتى أم لا
ويسمح صرف الدهر منكم بزورة * واطبق أجفانى على ذاتكم بخلا
ولو كان وصلكم يباع اشتريته * بروحى ولكن أرى وصلكم أغلى

ثم ان نور الدين طلع من وقته وساعته وتوجه الى السوق وأخذ منه جميع ما يحتاج اليه من الزاد وأدوات السفر وأقبل على ذلك الرئيس فلما رآه قال له ياولدى ما هذا الذى معك قال زوادتى وما أحتاج اليه فى السفر فضحك الرئيس من كلامه وقال له ياولدى هل أنت رائح تتفرج على عمود السوارى ان بينك وبين مقصدك مسيرة شهرين اذا طاب الريح وصفت الاوقات ثم ان ذلك الشيخ أخذ من نور الدين شيأ من الدراهم وطلع الى السوق واشترى له جميع ما يحتاج اليه فى السفر على قدر كفايته وملأ له بتية ماء حلو ثم أقام نور الدين فى المركب ثلاثة أيام الى أن تجهز التجار وقضوا مصالحهم ونزلوا فى المركب ثم حل الرئيس قلوعها وسار وامدة أحد وخمسين يوما وبعد ذلك خرج على القرصان قطاع الطريق فنهبوا المركب وأسروا جميع من فيها وأتوا بهم الى مدينة افرنجة وعرضوهم على الملك وكان نور الدين من جملتهم فامر الملك بحبسهم وفى وقت نزولهم من عند الملك الى الحبس وصل الغراب الذى فيه الملكة مريم الزنارية مع الوزير الاعور فلما وصل الغراب الى المدينة طلع الوزير الى الملك وبشره بوصول ابنته مريم الزنارية سالمة فدقوا البشائر وزينوا المدينة باحسن زينة وركب الملك فى جميع عسكره وأرباب دولته وتوجهوا الى البحر ليقابلوها فلما وصلت المركب طلعت ابنته مريم فعانقها وسلم عليها وقدم لها جوادا فركبته فلما وصلت الى القصر قابلتها أمها وعانقتها وسلمت عليها وسألتها عن حالها وهل هى بكر مثل ما كانت عندهم سابقا وصارت امرأة ثيبا فقالت لها يا امى بعد أن يباع الانسان فى بلاد المسلمين من تاجر الى تاجر ويصير محكوما عليه كيف تبقى بنت بكر ان التاجر الذى اشترانى هددنى بالضرب وأكرهنى فأزال بكارتى وباعنى لآخر وآخر باعنى لآخر فلما سمعت أمها هذا الكلام

صار الضياء فى وجهها كالظلام ثم أعادت على أبيها هذا الكلام فصعب ذلك عليه وكبر أمره لديه وعرض حالها على أرباب دولته وبطارقته فقالوا له أيها الملك انها تخلصت من المسلمين وما يظهرها الاضرب مائة رقبة من المسلمين فعند ذلك أمر الملك باحضار الاسارى الذين فى الحبس فاحضروهم جميعا بين يديه ومن جملتهم نور الدين فامر الملك بضرب رقابهم فاول من ضرب رقبته رئيس المركب ثم ضربوا رقاب التجار واحدا بعد واحد حتى لم يبق الا نور الدين فشرطوا ذيله وعصبوا عينيه وقدموه الى نطع الدم وأرادوا أن يضربوا رقبته واذا بامرأة عجوز أقبلت على الملك فى تلك الساعة وقالت له يا مولاى أنت كنت نذرت لكل كنيسة خمسة أسارى من المسلمين ان رد الله بنتك مريم لاجل أن يساعدونا فى خدمتها والآن قد وصلت اليك بنتك السيدة مريم فاوف بنذرك الذى نذرته فقال لها الملك يا أمى وحق المسيح والدين الصحيح لم يبق عندى من الاسارى غير هذا الاسير الذى يريدون قتله فخذيه معك يساعدك فى خدمة الكنيسة الى أن يأتى الينا أسارى من المسلمين فارسل اليك أربعة أخر ولو كنت سبقت قبل أن يضربوا رقاب هؤلاء الاسارى لاعطيناك كل ما تريدينه فشكرت العجوز صنيع الملك ودعت له بدوام العز والبقاء والنعم ثم تقدمت العجوز من وقتها وساعتها الى نور الدين وأخرجته من نطع الدم ونظرت اليه فرأته شابا لطيفا ظريفا رقيق البشرة ووجهه كانه البدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر فاخذته ومضت به الى الكنيسة وقالت له يا ولدى اقلع ثيابك التى عليك فانها لا تصلح الا لخدمة السلطان ثم ان العجوز جاءت لنور الدين بجبة من صوف أسود ومئزر من صوف أسود وسير عريض فالبسته تلك الجبة وذلك المئزر وشدت وسطه بالسير وامرته أن يخدم الكنيسة فخدم الكنيسة مدة سبعة أيام فبينما هو كذلك واذا بتلك العجوز قد أقبلت عليه وقالت له يا مسلم خذ ثيابك الحرير والبسها وخذ هذه العشرة دراهم واخرج فى هذه الساعة لتتفرج فى هذا اليوم ولا تقف هنا ساعة واحدة لئلا تروح روحك فقال لها نور الدين يا أمى أى شئ الخبر فقالت له العجوز اعلم يا ولدى أن بنت الملك السيدة مريم الزنارية تريد أن تدخل الكنيسة فى هذا الوقت لاجل أن تزورها وتتبرك بها وتتقرب لها قربانا حلاوة السلامة بسبب خلاصها من المسلمين وتوفى لها النذور التى نذرتها ان نجاها المسيح ومعها أربعمائة بنت ما واحدة منهن الا كاملة فى الحسن والجمال ومن جملتهن بنت الوزير وبنات الامراء وأرباب الدولة وفى هذه الساعة يحضرن وربما يقع نظرهن عليك فى هذه الكنيسة فيقتلنك فعند ذلك أخذ نور الدين من العجوز العشرة دراهم بعد ان لبس ثيابه وخرج

الى السوق وصار يتفرج فى شوارع المدينة حتى عرف جهاتها وأبوابها ثم رجع الى الكنيسة فرأى مريم الزنارية بنت الملك قد أقبلت على الكنيسة ومعها اربعمائة بنت نهد أبكار كأنهن الاقمار ومن جملتهن بنت الوزير الاعور وبنات الامراء وأرباب الدولة وهى تمشى بينهن كأنها القمر بين النجوم فلما رآها نور الدين لم يتمالك نفسه بل صرخ من صميم قلبه وقال يا مريم فلما سمعت البنات صياح نور الدين وهو ينادى يا مريم هجمن عليه وجردن بعض الصفاح مثل الصواعق وأردن قتله فى تلك الساعة فالتفتت المعمر يم وتأملته فعرفته غاية المعرفة فقالت للبنات أتركن هذا الشاب فانه مجنون بلا شك لان علامة الجنون لائحة على وجهه فلما سمع نور الدين من السيدة مريم هذا الكلام كشف رأسه وحملق عينيه وأشاح بيده وعوج رجليه وأخرج الزبد من فيه وشدقيه فقالت السيدة مريم أما قلت لكن ان هذا مجنون احضرنه عندى وابعدن عنه حتى أسمع ما يقول فانى أعرف كلام العرب وأنظر حاله وهل داء جنونه يقبل المداواة أم لا فعند ذلك حملته البنات وجئن به بين يديها ثم أبعدن عنه فقالت له هل جئت الى هنا من أجلى وخاطرت بنفسك وعملت نفسك مجنونا فقال لها نور الدين يا سيدتى أما سمعت قول الشاعر قالوا جننت بمن تهوى فقلت لهم * ما لذة العيش الا للمجانين

هاتوا جنونى وهاتوا من جننت به * فان وفى بجنونى لا تلومونى

فقالت له مريم والله يا نور الدين انك الجانى على نفسك فانى حذرتك من هذا قبل وقوعه فلم تقبل قولى وتبعت هوى نفسك وأنا ما اخبرتك من باب الكشف ولا من باب الفراسة ولا من باب الرؤيا فى المنام وانما هو من باب المشاهدة والعيان لانى رأيت الوزير الاعور فعرفت أنه ما دخل فى هذه البلدة الا فى طلبى فقال لها نور الدين يا سيدتى مريم نعوذ بالله من زلة العاقل ثم تزايد بنور الدين الحال فأنشد هذا المقال

هبوا جناية من زلت به القدم * قد يشمل العبد من ساداته كرم
حسب المسيء بذنب من جنايته * فرط الندامة اذ لا ينفع الندم
فعلت ما يقتضى التأديب معترفا * فاين ما يقتضيه العفو والكرم

ولم يزل نور الدين هو والملكة مريم الزنارية فى عتاب يطول شرحه وكل منهما يحكى لصاحبه ما جرى له ويتناشدان الاشعار ودموعهما تجرى على خدودهما شبه الانهار ويتشكيان لبعضهما شدة الهوى وألم الوجد والجوى الى أن لم يبق لاحدهما قوة على الكلام وقد ولى النهار وأقبل الظلام وقد كان على السيدة مريم حلة خضراء مزركشة بالذهب الاحمر مرصعة بالدر والجوهر فزادتها حسنا وظرفا ومعانيها

وقد أجاد من قال فيها

تبدت كبدر التم فى الحلل الخضر * مفككة الازرار محلولة الشعر
فقلت لها ما الاسم قالت أنا التى * كويت قلوب العاشقين على الجمر
أنا الفضة البيضاء والذهب الذى * يفك به المأسور من شدة الأسر
فقلت لها انى الصدود اذابنى * فقالت أتشكو الى وقلبى من صخر
فقلت لها ان كان قلبك صخرة * فقد أنبع الله الزلال من الصخر

فلما جن الليل أقبلت الملكة مريم على البنات وقالت لهن هل أغلقتن الباب فقلن لها قد أغلقناه فعند ذلك أخذت السيدة مريم البنات وأتت بهن الى مكان يقال له مكان السيدة مريم العذراء أم النور لأن النصارى يزعمون ان روحانيتها وسرها فى ذلك المكان فصارت البنات يتبركن به ويطفن فى الكنيسة كلها ولما فرغن من زيارتها التفتت السيدة مريم اليهن وقالت لهن انى أريد ان أدخل وحدى فى هذه الكنيسة وأتبرك بها فانه حصل لى اشتياق اليها بسبب طول غيبتى فى بلاد المسلمين وأما أنتن فحيث فرغتن من الزيارة فنمن حيث شئتن فقلن لها حبا وكرامة افعلى أنت ما تريدينه ثم انهن تفرقن عنها فى الكنيسة ونمن فعند ذلك استغفلتهن مريم وقامت تفتش على نور الدين فرأته فى ناحية جالسا على مقالى الجمر وهو فى انتظارها فلما أقبلت عليه قام لها على قدميه وقبل يديها فجلست وأجلسته الى جانبها ثم نزعت ما كان عليها من الحلى والحلل وضمت نور الدين الى صدرها وجعلته فى حضنها ولم تزل هى واياه فى تقبيل وعناق ونغمات خاق باق وهما يقولان ما أقصر ليل التلاق وما أطول يوم الفراق وينشدان قول الشاعر

يا ليلة الوصل وبكر الدهر * لانت غرة الليالى الغر
فأتى بالصبح وقت العصر * هل كنت كحلا فى عيون الفجر
أو كنت نوما فى عيون الرمد

ليلة الوصال ما أطولها * آخرها مواصل أولها
كحلقة مفرغة ما ان لها * من طرف والحشر أيضا قبلها
فالصبح بعد البعث ميت الصد

فبينما هما فى هذه اللذة العظيمة والفرحة العميمة واذا بغلام من الغلمان النفيسة يضرب الناقوس فوق سطح الكنيسة ليقيم من عباداتهم الشعائر وهو كما قال الشاعر

رأيته يضرب الناقوس قلت له * من علم الظبى ضربا بالنواقيس

وقلت النفس أى الضرب يؤلمك * ضرب النواقيس أم ضرب النواقيس

فلما سمعت مريم ضرب الناقوس قامت لوقتها وساعتها ولبست ثيابها وحليها فشق ذلك على نور الدين وتكدر قلبه الحزين وسكب العبرات وأنشد هذه الابيات

لازلت الثم ورد خد غض * وأعد ذاك مبالغا فى العض
حتى اذا طبنا ونام رقيبنا * وعيونه مالت لنحو الغمض
ضربت نواقيس نشبه أهلها * بمؤذن يدعو صلاة الفرض
قامت على عجل لتلبس ثيابها * من خوف نجم رقيبنا المنقض
وتقول يا سؤلى ويا كل المنى * جاء الصباح بوجهه المبيض
اقسمت لو أعطيت ملك ولاية * وبقيت سلطانا شديد القبض
لهدمت أركان الكنائس كلها * وقتلت كل مقسس فى الارض

ثم ان السيدة مريم ضمت نور الدين الى صدرها وقبلت خده وقالت له يا نور الدين كم يوم لك فى هذه المدينة فقال سبعة أيام فقالت له هل سرت فى هذه المدينة وعرفت طرقها ومخارزها وأبوابها التى من ناحية البر والبحر قال نعم قالت وهل تعرف طريق صندوق النذر الذى فى الكنيسة قال نعم فقالت له حيث كنت تعرف ذلك كله اذا كانت الليلة المقابلة ومضى ثلث الليل الاول فاذهب فى تلك الساعة الى صندوق النذر وخذ منه ما تريده وتشتهيه وافتح باب الكنيسة الذى فيه الخوخة التى توصل الى البحر فانك تجد سفينة صغيرة فيها عشرة رجال بحرية فتى رآك الرئيس يمد يده اليك فناوله يدك فانه يطلعك فى السفينة فاقعد عنده حتى أجىء اليك واحذر ثم الحذر من أن يلحقك النوم فى تلك الليلة فتندم حيث لا ينفعك الندم ثم ان السيدة مريم ودعت نور الدين وخرجت من عنده فى ذلك الوقت والحين ونبهت جواريها وسائر البنات من نومهن وأخذتهن وأتت الى باب الكنيسة ودقته ففتحت العجوز الباب فلما طلعت منه رأت الخدم والحشم والبطارقة وقوفا فقدموا لها بغلة فركبتها وأرخوا عليها ناموسية من الحرير وأخذت البطارقة بزمام البغلة وورائها البنات واحتاط بها الجاويشية وبايديهم السيوف مسلولة وتوجهوا بها الى أن وصلوا الى قصر ابيها هذا ما كان من أمرها (وأما) ما كان من أمر نور الدين فانه لم يزل مختفيا وراء الستارة التى كان مستترا خلفها هو ومريم الى أن طلعت الشمس ودخل الناس فى الكنيسة وكثروا فيها فاختلط بالناس وجاء الى تلك العجوز قيمة الكنيسة فقالت له أين كنت راقدا فى هذه الليلة قال فى محل داخل المدينة كما أمرتينى فقالت له العجوز نعم ما فعلت ولو كنت بت الليلة فى الكنيسة

لكانوا قتلوك أقبح قتلة فقال لها نور الدين الحمد لله الذي نجاني من شر هذه البلدة ولم يزل نور الدين يقضي شغله في الكنيسة الى أن مضى النهار وأقبل الليل بدياجي الاعتكار فقام نور الدين وفتح صندوق النذر وأخذ منه ما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر ثم صبر الى أن مضى ثلث الليل الاول وقام ومشى الى باب الخوخة التي توصل الى البحر وهو يطلب الستر من الله ولم يزل يمشي الى أن وصل الى الباب وفتحه وخرج من تلك الخوخة وذهب الى البحر فوجد السفينة راسية على شاطئ البحر بجوار الباب ووجد الرئيس شيخا كبيرا طويلة لحيته وهو واقف في وسطها على رجليه والعشرة رجال واقفون قدامه فناوله نور الدين يده ثم أمرته مريم فأخذه من يده وجذبه من البحر فصار في وسط السفينة فعند ذلك صاح الشيخ الرئيس على البحرية وقال لهم اقلعوا مرساة السفينة من البر وعوموا بنا قبل أن يطلع النهار فقال واحد من العشرة البحرية يا سيدي الرئيس كيف نعوم والملك أخبرنا أنه في غد يركب السفينة في هذا البحر ليطلع على ما فيه لانه خائف على ابنته مريم من سراق المسلمين فصاح عليهم الرئيس وقال ويلكم يا ملاعين هل بلغ من أمركم أنكم تخالفونني وتردون كلامي ثم ان الرئيس سل سيفه من غمده وضرب به ذلك المتكلم على عنقه فخرج السيف يلمع منه فقال له واحد وأي ذنب عمل صاحبنا حتى تضرب رقبته فمد يده الى السيف وضرب به عنق هذا المتكلم ولم يزل ذلك الرئيس يضرب أعناق البحرية واحدا بعد واحد حتى قتل العشرة ورماهم على شاطئ البحر ثم التفت الى نور الدين وصاح عليه صيحة عظيمة أرعبته وقال له انزل الى المراسي فخاف نور الدين من ضرب السيف ونهض قائما ووثب في البر وقلع المراسي ثم طلع في السفينة أسرع من البرق وصار الرئيس يقول له افعل كذا وكذا ودور كذا وكذا وانظر النجوم ونور الدين يفعل جميع ما يأمره به الرئيس وقلبه خائف مرعوب ثم رفع شراع المركب وسارت بهما في البحر العجاج المتلاطم بالامواج وقد طاب لهما الريح كل ذلك ونور الدين ماسك بيده الراجع وهو غريق في بحر الافكار ولم يزل مستغرقا في الفكر ولم يعلم بما هو مخبأ له في الغيب وكلما نظر الى ذلك الرئيس ارتعب قلبه ولم يعلم الجهة التي هو متوجه اليها بل صار مشغولا في فكر ووسواس الى أن اتضح النهار وطلعت الشمس فعند ذلك نظر نور الدين الى الرئيس فرآه قد أخذ لحيته الطويلة بيده وجذبها فانطلعت من موضعها في يده وتأملها نور الدين فوجدها لحية كانت ملصقة زورا ثم تأمل نور الدين في ذات الرئيس ودقق النظر فيها فاذا هي السيدة مريم معشوقته وكانت قد تحيلت بتلك الحيلة حتى قتلت الرئيس وسلخت وجهه بلحيته وأخذت جلدة

وجهه وركبته على وجهها فتعجب نور الدين من فعلها وشجاعتها ومن قوة قلبها وقد طار عقله من الفرح واتسع صدره وانشرح فقال لها مرحبا بك يامنيتي وسؤلي وغاية مطلبي ثم ان نور الدين هزه الشوق والطرب وأيقن ببلوغ الأمل والارب فردد صوته بأطيب النغمات وأنشد هذه الابيات

قل لقوم هم لعشقي جهلوا * في حبيب ماالبه وضلوا
عن غرامي بين قومي قالوا * قد حلا نظمي ورق الغزل * في هوى قوم بقلبي نزلوا
ذكرهم عندي يزيل السقما * عن فؤادي ويزيح الالما
زاد شوقي وهيامي عندما * أصبح القلب كئيبا مغرما * وبه في الناس سار المثل
أنا لاأقبل فيهم لومة * لا ولا أقصد عنهم سلوة
لكن الحب رماني حسرة * أشعلت منه بقلبي جمرة * حرها في كبدي يشتعل
من عجيب قد أباحوا سقمي * مع سهادي طول ليل مظلم
كيف راموا بالتجافي عدمي * واستحلوا في الهوى سفك دمي * وهم في جورهم قد طلوا
ياترى من الذي أوصاكم * بالتجافي عن فتى يهواكم
ولعمري والذي أنشاكم * نقل العذال قولا عنكم * كذبوا والله فيما انقلوا
لا ازاح الله عني علا * لا ولا أشفى لقلبي غلا
يوم أشكو من هواكم مللا * أنا لا أرضى سواكم بدلا * عذبوا قلبي وان شئتم صلوا
لي فؤاد لم يحل عن حبكم * لو يعاني حسرة من صدكم
حفظ هذا والرضا من عندكم * ماتشاؤا فافعلوا في عبدكم * هو بالروح لكم لا يبخل

فلما فرغ نور الدين من شعره تعجبت منه مريم غاية العجب وشكرته على قوله وقالت له من هذه حالته ينبغي أن يسلك مسالك الرجال ولا يفعل فعل الانذال وقد كانت السيدة مريم قوية القلب تعرف بأحوال سير المراكب في البحر المالح وتعرف الاهوية كلها واختلافها وتعرف طرق البحر فقال لها نور الدين والله ياسيدتي لو أطلت علي هذا الامر لمت من شدة الخوف والفزع خصوصا مع نار الوجد والاشتياق وألم الفراق فضحكت من كلامه وقامت من وقتها وساعتها وأخرجت شيأ من المأكول والمشروب فأكلا وشربا وتلذذا وطربا وبعد ذلك أخرجت من اليواقيت والجواهر وأصناف المعادن الغالية والذخائر وأنواع الذهب والفضة مما خف حمله وغلا ثمنه من الذي جاءت به من قصر أبيها وخزائنه وعرضت ذلك على نور الدين ففرح به غاية الفرح كل ذلك والريح معتدل والمركب سائرة ولم يزالا سائرين حتى أشرفا على مدينة اسكندرية

وشاهدا أعلامها القوية فلما وصلا الى المناطلع نورالدين من وقته وساعته من تلك السفينة وربطها هناك وأخذ معه شيأ من الذخائر التى جاءت بها مريم وقال لها يا سيدتى أقعدى فى السفينة حتى أطلع بك الى اسكندرية مثل ما أحب وأشتهى فقالت له ولكن ينبغى أن يكون بسرعة لان التراخى فى الامور يورث الندامة فقعدت مريم فى السفينة وتوجه نورالدين الى بيت العطار صاحب أبيه ليستعير لها من زوجته نقابا وازارا وما تحتاج اليه كعادة نساء اسكندرية ولم يعلم بما لم يكن له فى حساب من تصرفات الدهر ابى العجب العجاب هذا ما كان من أمر نورالدين ومريم الزنارية (وأما) ما كان من أمر أبيها ملك افرنجة فانه لما أصبح الصباح تفقد ابنته مريم فلم يجدها فسأل عنها من جواريها وخدمها فقالوا له يا مولانا انها خرجت بالليل وراحت الى الكنيسة وبعد ذلك لم نعرف لها خبرا فبينما الملك يتحدث مع الجوارى والخدم فى تلك الساعة واذا بصرختين عظيمتين تحت القصر قد دوى لهما المكان فقال الملك ما الخبر فقالوا له أيها الملك وجدنا عشرة رجال مقتولين على ساحل البحر وسفينة الملك قد فقدت ورأينا باب الخوخة الذى فى الكنيسة من جهة البحر مفتوحا والاسير الذى كان يخدم الكنيسة قد فقد فقال الملك ان كانت سفينتى فى البحر قد فقدت فبنتى مريم فيها بلا شك ولا ريب ثم ان الملك دعا رئيس المينا وقال له وحق المسيح والدين الصحيح ان لم تلحق سفينتى فى هذه الساعة بعسكر وتأتينى بمن فيها الا قتلتك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة ثم صرخ عليه الملك فخرج من بين يديه وهو يرتعد وطلب العجوز من الكنيسة وقال لها ما كنت تسمعين من الاسير الذى كان عندك فى شأن بلاده ومن اى البلاد هو فقالت له كان يقول أنا من مدينة اسكندرية فلما سمع الرئيس كلام العجوز رجع من وقته وساعته الى المينا وصاح على البحرية وقال لهم تجهزوا وحلوا القلوع ففعلوا ما أمرهم به وسافروا ولم يزالوا مسافرين ليلا ونهارا حتى اشرفوا على مدينة اسكندرية فى الساعة التى طلع فيها نور الدين من السفينة وترك فيها السيدة مريم وكان من جملة الافرنج الوزير الاعور الاعرج الذى كان اشتراها من نورالدين فرأوا السفينة مربوطة فعرفوها فربطوا مركبهم بعيدا عنها وأتوا اليها فى مركب صغيرة تعوم على ذراعين من الماء وفى تلك المركب مائة مقاتل ومعهم الوزير الاعور الاعرج لانه كان جبارا عنيدا وشيطانا مريدا ولصا محتالا ولم يزالوا سائرين الى أن وصلوا الى تلك السفينة فهجموا عليها وحملوا حملة واحدة فلم يجدوا فيها أحدا الا السيدة مريم فاخذوها هى والسفينة التى هى فيها بعد أن طلعوا على الشاطئ وأخذوا ما يحتاجونه ثم عادوا من وقتهم وساعتهم الى مركبهم وقد فازوا ببغيتهم

ومطالبهم من غير قتال ونزاع ورجعوا قاصدين بلاد الافرنج وسافروا وقد طاب لهم الريح ولم يزالوا مسافرين على حماية الى أن وصلوا الى مدينة افرنجة وطلعوا بالسيدة مريم الى أبيها وهو فى تخت مملكته فلما نظر اليها أبوها قال لها ويلك يا خائنة كيف تركت دين الآباء والاجداد وحصن المسيح الذى عليه الاعتماد واتبعت دين الاسلام الذى قام بالسيف على رغم الصليب والاصنام فقالت له مريم أنا مالى ذنب لانى خرجت فى الليل الى الكنيسة لازور السيدة مريم وأتبرك بها فبينما أنا فى غفلة اذا بسراق المسلمين قد هجموا على وسدوا فى وشدوا وثاقى ووضعونى فى السفينة وسافروا بى الى بلادهم فخادعتهم وتكلمت معهم فى دينهم الى أن فكوا وثاقى وما صدقت أن رجالك أدركونى وخلصونى وأنا وحق المسيح والدين الصحيح قد فرحت بفكاكى من أيديهم غاية الفرح واتسع صدرى لذلك وانشرح حيث خلصت من أسرهم فقال لها أبوها كذبت يا فاجرة يا عاهرة وحق محكم الانجيل ومنزل التحريم والتحليل لابدلى من أن أقتلك أقبح قتلة وأمثل بك أشنع مثلة أما كفاك الذى فعلتيه فى الاول ودخل علينا محالك حتى رجعت الينا بمهتانك واحتيالك ثم ان الملك أمر بقتلها وصلبها على باب القصر فدخل عليه الوزير الاعور فى تلك الساعة وكان مغرما بحبها قديما وقال له يا مولانا الملك لا تقتلها وزوجنى بها وأنا أحرص عليها غاية الحرص وما أدخل عليها حتى أبنى لها قصرا من الحجر الجلمود وأعلى بنيانه حتى لا يستطيع أحد من السارقين الصعود عليه واذا فرغت من بنيانه ذبحت على بابه أربعين من المسلمين وأجعلهم قربانا للمسيح عنى وعنها فانعم عليه الملك بزواجها وأذن للقسيسين والرهبان والبطارقة أن يكتبوا عليها له فكتبوا عليها للوزير الاعور وأذن أن يشرعوا لها فى بنيان قصر مشيد يليق بها فشرعت العمال فى العمل * هذا ما كان من أمر الملك وابنته (وأما) ما كان من أمر نور الدين والرجل العطار فان نور الدين لما توجه الى العطار استعار من زوجته ازارا ونقابا كنساء اسكندرية ورجع بهما الى البحر وقصد محل السفينة التى فيها مريم فوجد الجو قفرا والمزار بعيدا فصار قلبه حزينا فبكى بدمع متواتر وأنشد قول الشاعر

سرى طيف سعدى طارقا فاستفزنى * سحيرا وصحبى فى الفلاة رقود
فلما انتبهنا للخيال الذى سرى * أرى الجو قفرا والمزار بعيد

فمشى نور الدين على شاطئ البحر يتلفت يمينا وشمالا فرأى ناسا مجتمعين على الشاطئ وهم يقولون يا مسلمون ما بقى لمدينة اسكندرية حرمة حتى صار الافرنج يدخلونها ويختطفون من فيها ويعودون الى بلادهم على غاية الامان ولا يخرج وراءهم أحد من

المسلمين ولا من العساكر المغازين فقال لهم نور الدين ما الخبر فقالوا له ان مركبا من مراكب الافرنج فيها عساكر قد هجموا في هذه الساعة على المينا واخذوا سفينة كانت راسية هنا بمن فيها وراحوا على حمايتها الى بلادهم فلما سمع نور الدين كلامهم وقع مغشيا عليه فلما أفاق سألوه عن قصته فاخبرهم بخبره من الاول الى الآخر فلما فهموا خبره صار كل منهم يشتمه ويسبه ويقول له لاي شيء فعلت هذا ما تخرجها الا بازار ونقاب وصار كل واحد من الناس يقول له كلاما مؤلما ومنهم من يقول خلوه في حاله يكفيه ما جرى له وصار كل واحد يوجعه بالكلام ويرميه بسهام الملام حتى وقع مغشيا عليه فبينما الناس مع نور الدين على تلك الحالة واذا بصاحبه العطار قد أقبل فرأى الناس مجتمعين فمشى جهتهم ليعرف الخبر فرأى نور الدين راقدا بينهم وهو مغشي عليه فقعد عند رأسه ونبهه فلما أفاق قال له يا ولدي ما هذا الحال الذي أنت فيه فقال له يا عم ان جاريتي التي ذهبت مني قد جئت بها من مدينة أبيها في مركب وقاسيت ما قاسيت في المجيء بها فلما وصلت بها الى هذه المدينة ربطت السفينة في البر وتركت الجارية فيها وذهبت الى منزلك وأخذت من زوجتك مصالح للجارية لاخرجها بها من السفينة الى المدينة فجاء الافرنج وأخذوا السفينة والجارية فيها وراحوا على حماية حتى وصلوا الى مركبهم فلما سمع العطار من نور الدين هذا الكلام تاسف على نور الدين أسفا عظيما وحزن عليه حزنا جسيما وقال له يا ولدي لاي شيء ما أخرجتها من السفينة الى المدينة من غير ازار ونقاب ولكن في هذا الوقت ما ينفع الكلام قم يا ولدي واطلع معي الى المدينة لعل الله يرزقك بجارية أحسن منها فتتسلى بها عنها واحمد الله على عدم خسارتك فيها شيئا بل حصل لك الربح فيها واعلم يا ولدي أن الاتصال والانفصال بيد الملك المتعال فقال له نور الدين والله يا عم اني ما أقدر أن أسلاها أبدا ولا أترك طلبها ولو سقيت من أجلها كأس الردى فقال له العطار يا ولدي وأي شيء في ضميرك تريد أن تفعله فقال له نويت أن أرجع الى بلادهم وأدخل مدينتها فرنجة وأخاطر بنفسي فاما عليها واما لها فقال له يا ولدي ان في الامثال السائرة ما كل مرة تسلم الجرة وان كانوا ما فعلوا بك في المرة الاولى شيأ ربما يقتلونك هذه المرة لا سيما وقد عرفوك سابقا فقال نور الدين يا عم دعني أسافر وأقتل من أجلها صبرا وكان بمصادفة القدر مركب راسية في المينا مجهزة للسفر وركابها قد قضت جميع أشغالها وفي تلك الساعة قلعوا أوتادها فنزل فيها نور الدين وسافرت تلك المركب مدة أيام وقد طاب لركابها الوقت والريح فبينما هم سائرون واذا بمركب من مراكب الافرنج دائرة في البحر العجاج لا يرون مركبا الا ويأخذونها خوفا على بنت الملك من سراق المسلمين

واذا أخذوا مركبا يوصلون جميع من فيها الى ملك افرنجة فيذبحهم ويوفى بهم نذره الذى كان نذره من أجل ابنته فرأوا المركب التى فيها نور الدين فأخذوها وأسروا كل من كان فيها وأتوا بهم الى الملك والد السيدة مريم فلما أوقفوهم بين يديه وجدهم مائة رجل من المسلمين فأمر بذبحهم فى الوقت والساعة ومن جملتهم نور الدين فذبحوهم كلهم ولم يبق منهم الا نور الدين وكان الجلاد أخره شفقة عليه لصغر سنه ورشاقة قده فلما رآه الملك عرفه حق المعرفة فقال له أما أنت نور الدين الذى كنت عندنا فى المرة الاولى قبل هذه المرة فقال له ما كنت عندكم وليس اسمى نور الدين وانما اسمى ابراهيم فقال له الملك كذبت بل أنت نور الدين الذى وهبتك للعجوز القيمة على الكنيسة لتساعدها فى خدمة الكنيسة فقال له نور الدين يا مولاى أنا اسمى ابراهيم فقال له الملك ان العجوز قيمة الكنيسة اذا حضرت ونظرتك تعرف هل أنت نور الدين أو غيره فبينما هم فى الكلام واذا بالوزير الاعور الذى تزوج مريم قد دخل فى تلك الساعة وقبل الارض بين يدى الملك وقال له أيها الملك اعلم ان القصر قد فرغ بنيانه وأنت تعرف أنى نذرت للمسيح اذا فرغت من بنائه أن أذبح على بابه أربعين من المسلمين وقد أتيتك لآخذ من عندك أربعين مسلما فأذبحهم وأوفى بهم نذر المسيح ويكونون فى ذمتى على سبيل القرض ومتى جاءنى أسارى أعطيتك بدلهم فقال الملك وحق المسيح ما بقى عندى غير هذا الاسير وأشار الى نور الدين وقال له خذه واذبحه فى هذه الساعة حتى أرسل اليك البقية اذا جاءنى أسارى من المسلمين فعند ذلك قام الوزير الاعور وأخذ نور الدين ومضى به الى القصر ليذبحه على عتبة بابه فقال له الدهانون يا حضرة الوزير قد بقى علينا من الدهان شغل يومين فاصبر علينا وأخر ذبح هذا الاسير حتى نفرغ من الدهان عسى أن يأتى اليك بقية الاربعين فتذبح الجميع دفعة واحدة وتوفى بنذرك فى يوم واحد فعند ذلك أمر الوزير بحبس نور الدين فأخذوه مقيدا جائعا عطشانا يتحسر على نفسه وقد نظر الموت بعينه واتفق بالامر المقدر والقضاء المبرم أنه كان للملك حصانان أخوان شقيقان أحدهما اسمه سابق والآخر لاحق وكانت الملوك الاكاسرة تتحسر تحصيل واحد منهما وكان أحدهما اشهب نقيا والآخر أدهم كالليل الحالك وكانت ملوك الجزائر جميعا يقولون كل من سرق لنا حصانا من هذين الحصانين نعطيه جميع ما يطلبه من الذهب الاحمر والدر والجوهر فلم يقدر احد على سرقة واحد من هذين الحصانين فحصل لاحدهما مرض فى عينيه فاحضر الملك جميع البياطرة لدوائه فعجز واعنه كلهم فدخل على الملك الوزير الاعور الذى تزوج بنته مريم فرآه مهموما من قبل ذلك الحصان فاراد ان يزيل

همه فقال ايها الملك اعطني هذا الحصان وانا اداويه لك فاعطاه له فنقله في الاصطبل الذي فيه نور الدين محبوس فلما فارق هذا الحصان اخاه صاح صيحة عظيمة وصهل حتى ازعج الناس من الصياح فعرف انه ما حصل منه هذا الصياح الا لفراقه لاخيه فذهب واعلم الملك بذلك فلما تحقق الملك كلامه قال اذا كان ذلك حيوانا ولم يصبر على فراق اخيه فكيف بذوي العقول ثم امر الغلمان ان ينقلوا الحصان عند اخيه بدار الوزير زوج مريم وقال لهم قولوا للوزير ان الملك يقول لك ان الحصانين انعام منه عليك لاجل خاطر ابنته مريم فبينما نور الدين نائما في الاصطبل وهو مقيد مكبل اذ نظر الى الحصانين فوجد على عيني احدهما غشاوة وكان عنده بعض معرفة باحوال الخيل ومعارسة دوائها فقال في نفسه هذا والله وقت فرصتي فاقوم واكذب على الوزير واقول له اداوي هذا الحصان واعمل له شيأ يتلف عينيه فيقتلني واستريح من هذه الحياة الذميمة ثم ان نور الدين انتظر الوزير الى ان دخل الاصطبل ينظر الى الحصانين فلما دخل قال له نور الدين يا مولاي اي شيء يكون لي عليك اذا انا داويت لك هذا الحصان واعمل له شيأ يطيب عينيه فقال له الوزير وحياة راسي ان داويته اعتقك من هذا الذبح واخليك تتمنى علي فقال يا مولاي مر بفك يدي فامر الوزير باطلاقه فنهض نور الدين واخذ زجاجا بكرا وسحقه واخذ جيرا بلا طفي وخلطه بماء البصل ثم وضع الجميع في عيني الحصان وربطهما وقال في نفسه الآن تتغور عيناه فيقتلني واستريح من هذه المعيشة الذميمة ثم ان نور الدين نام تلك الليلة بقلب خال من وسواس الهم وتضرع الى الله تعالى وقال يارب في علمك ما يغني عن السؤال فلما اصبح الصباح واشرقت الشمس على الروابي والبطاح جاء الوزير الى الاصطبل وازال الرباط عن عيني الحصان ونظر اليهما فرآهما احسن عيون ملاح بقدرة الملك الفتاح فقال له الوزير يا مسلم ما رأيت في الدنيا مثلك في حسن معرفتك وحق المسيح والدين الصحيح انك اعجبتني غاية الاعجاب فانه عجز عن دواء هذا الحصان كل بيطار في بلادنا حتى تحير فيه ذووا الالباب ثم تقدم الى نور الدين وحل قيده بيده ثم البسه حلة سنية وجعله ناظرا على خيله ورتب له مرتبات وجرايات واسكنه في طبقة على الاصطبل وكان في القصر الجديد الذي بناه للسيدة مريم شباك مطل على بيت الوزير وعلى الطبقة التي فيها نور الدين فقعد نور الدين مدة ايام ياكل ويشرب ويتلذذ ويطرب ويامر وينهي على خدمة الخيل وكل من غاب منهم ولم يعلق على الخيل المربوطة على الطوالة التي فيها خدمته يرميه ويضربه

ضرباشديدا ويضع فى رجليه القيد الحديد وفرح الوزير بنور الدين غاية الفرح ولم يدر ما يؤول أمره اليه وكان نور الدين ينزل كل يوم الى الحصانين و [illegible] من عزتهما عند الوزير ومحبته لهما وكان لذلك الوزير بنت بكر فى غاية الجمال كأنها غزال شارد أو غصن مائد فاتفق أنها كانت جالسة ذات يوم من الأيام فى الشباك المطل على بيت الوزير وعلى المكان الذى فيه نور الدين اذ سمعت نور الدين يغنى ويسلى نفسه على المشقات بانشاد هذه الابيات

ياعاذلا أصبح فى ذاته * منعما يزهو بلذاته * لو عضك الدهر بآفاته
لقلت من ذوق مراراته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
لكن سلمت اليوم من غدره * ومن تناهيه ومن جوره * فلا تلم من حار فى أمره
وقال من فرط صباباته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته
كن عاذرا العشاق فى حالهم * ولا تكن عونا العذالهم * اياك أن تشد فى حبلهم
بجرعا من مرلوعاته * آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحراراته

قد كنت من قبلك بين العباد * كمثل من بات خلى الفؤاد

لم أعرف العشق وطعم السهاد * حتى دعانى لمقاماته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * لم يدر ما العشق وماذله * الا الذى أسقمه طوله
وضاع منه فى الهوى عقله * وشربه من مرجرعاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * كم عين صب فى الدجى أسهرا * واحرم الجفن لذيذ الكرى
وكم أسال دمعه أنهرا * تجرى على الخد بلوعاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * كم فى الورى من مغرم مستهام * سهران من وجد بعيد المنام
لبسه ثوب الضنا والسقام * من قد نفى عنه مناماته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * كم قل صبرى وبرى أعظمى * وسال دمعى منه كالعندم
من أهيف قد زاد فيه سقمى * قد كان حلوا فى مذاقاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * مسكين من فى الناس مثلى عشق * وبات فى جنح الليالى أرق
ان عام فى بحر الجفا فى غرق * يشكو من العشق وزفراته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * من ذا الذى بالعشق لم يبتل * ومن نجا من كيده الاهول
ومن يعش منه يعش خلى * وأين من فاز براحاته * آه من العشق وحالاته
أحرق قلبي بحراراته * يارب دبر من به قد بلى * واكفله أنعم أنت من كافل

وارزقه منك بالثبات الجلي * والطف به في كل آناته
آه من العشق وحالاته * أحرق قلبي بحرارته

فلما فرغ نور الدين من كلامه وخلاص من شعره ونظامه قالت بنت الوزير في نفسها وحق المسيح والدين الصحيح ان هذا المسلم شاب مليح ولكن لاشك أنه عاشق مفارق فياترى معشوق هذا الشاب مليح مثله وهل عنده مثل ماعنده أم لا فان كان معشوقه مليحا مثله يحق له اسالة العبرات وشكوى الصبابات وان كان غير مليح فقد ضيع عمره في الحسرات وحرم طعم اللذات وكانت مريم الزنارية زوجة الوزير محبوبة نور الدين قد نقلت الى القصر الجديد بالأمس ذلك اليوم وعلمت منها بنت الوزير بضيق الصدر فعزمت على ان تذهب اليها وتحدثها بخبر هذا الغلام وما سمعت منه من النظام فما استتمت الفكر في هذا الكلام حتى أرسلت خلفها السيدة مريم زوجة أبيها الاجل أن تؤانسها بالحديث فذهبت اليها فرأت صدرها ضيقا ودموعها جارية على خدها وهي تبكي البكاء الشديد الذي ما عليه من مزيد وتكفكف العبرات وتنشد هذه الابيات

مضى عمري وعمر الوجد باقي * وصدري ضاق من فرط اشتياقي
وقلبي ذاب من ألم الفراق * يؤمل عودا يام التلاقي
* لينتظم الوصال على انتساق *

أقلوا اللوم عن مسلوب قلب * نحيل الجسم من شوق وكرب
ولا ترموا حشاه بسهم عتب * فما في الكون أشقى من محب
* فمر العشق حلو في المذاق *

فقالت بنت الوزير للسيدة مريم مالك أيتها الملكة ضيقة الصدر مشتتة الفكر فلما سمعت السيدة مريم كلام بنت الوزير تذكرت مافات من عظيم اللذات فأنشدت هذه الابيات

ساصبر توطينا على هجر صاحبي * وأرسل در الدمع نثرا على نثر
عسى فرج يأتي به الله انه * طوى كل يسر تحت أجنحة العسر

فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة لا تضيقي صدرا وقومي معي في هذه الساعة الى شباك القصر فان عندنا في الاصطبل شابا مليحا رشيق القوام حلو الكلام كأنه عاشق مفارق فقالت لها السيدة مريم بأي علامة عرفت أنه عاشق مفارق فقالت لها بنت الوزير أيتها الملكة عرفت ذلك بانشاده القصائد والاشعار آناء الليل وأطراف النهار فقالت السيدة مريم في نفسها ان كان قول بنت الوزير بينة فهذه صفات الكئيب المسكين على نور الدين

فياهل ترى هو ذلك الشاب الذى ذكرته بنت الوزير ثم ان السيدة مريم زاد بها العشق والهيام والوجد والغرام فقامت من وقتها وساعتها ومشت مع بنت الوزير الى الشباك ونظرت منه فرأته محبوبها وسيدها نور الدين ودققت النظر فيه فعرفته حق المعرفة ولكنه سقيم من كثرة عشقه لها ومحبته اياها ومن نار الوجد وألم الفراق والوله والاشتياق قد زاد به النحول وهو ينشد ويقول

القلب مملوك وعيني جاريه * ليس لها سحابة مجاريه
بين بكائى وسهادى والجوى * والنوح والحزن على أحبابيه
واحرقتى واحسرتى والوعتى * تكاملت أعدادها ثمانيه
وتابعتها خمسة فى خمسة * ألا قفوا واستمعوا مقاليه
ذكر وفكر وزفير وضنا * وفرط شوق واشتغال باليه
محنة وغربة وصبوة * ولهفة وقرحة ترانيه
قل اصطبارى واحتمالى للهوى * لما نأى صبرى دنت آجاليه
قد زاد فى قلبى تباريح الجوى * ياسائلا عن نار قلبى ماهيه
مابال دمعى موقدا فى مهجتى * فنار قلبى لا تزال حاميه
أصبحت فى طوفان دمعى غارقا * ومن لظى هذا الهوى فى هاويه

فلما رأت السيدة مريم سيدها على نور الدين وسمعت بليغ شعره وبديع نظمه تحققت أنه هو ولكن كتمت أمرها عن بنت الوزير وقالت لها وحق المسيح والدين الصحيح ما كنت أحسب أن عندك خبرا بضيق صدرى ثم نهضت لوقتها وساعتها وقامت من الشباك ورجعت الى مكانها ومضت بنت الوزير الى حالها ثم صبرت السيدة مريم برهة من الزمان ورجعت الى الشباك وجلست فيه وصارت تنظر الى سيدها نور الدين وتتأمل فى لطفه ورقة معانيه فرأته كالبدر اذا بدر فى ليلة أربعة عشر لكنه دائم الحسرات جارى العبرات وقد تذكر مافات فانشد هذه الابيات

أملت وصل أحبتى ما نلته * أبدا ومر العيش قد واصلته
دمعى يحاكى البحر فى جريانه * واذا رأيت عواذلى كفكفته
آه على داع دعا بفراقنا * لو نلت منه لسانه لقطعته
لا عتب للايام فى أفعالها * مزجت بصرف المر ما جرعته
فلمن أسير الى سواكم قاصدا * والقلب فى ساحاتكم خلفته
من منصفى من ظالم متحكم * يزداد ظلما كلما حكمته

ملكته روحى ليحفظ ملكه * فأضاعني وأضاع ما ملكته
أنفقت عمرى فى هواك وليتنى * أعطى وصولا بالذى أنفقته
يا أيها الرشا المليح بمهجتى * يكفى من الهجران ما قد ذقته
أنت الذى جمع المحاسن وجهه * لكن عليه تصبرى فرقته
أحللته قلبى فحل به البلا * انى لراض بالذى أحللته
وجرت دموعى مثل بحر زاخر * لو كنت أعرف مسلكا لسلكته
وخشيت خوفا أن أموت بحسرة * و يفوت منى كل ما أملته

فلما سمعت مريم من نور الدين العاشق المفارق انشاد هذه الاشعار حصل عندها من كلامه اقشعرار فأفاضت دموع العينين وأنشدت هذين البيتين

بليت بمن أهوى فلما لقيته * ذهلت فلم أملك لسانا ولا طرفا
وكنت معد العتاب دفاترا * فلما اجتمعنا ما لقيت ولا حرفا

فلما سمع نور الدين كلام السيدة مريم عرفها وبكى بكاء شديدا وقال والله ان هذه نغمة سيدتى مريم الزنارية بلا شك ولا ريب ولا رجم غيب فيا ترى هل ظنى صحيح وأنها هى أو غيرها ثم ان نور الدين زادت به الحسرات فتأوه وأنشد هذه الابيات

لما رآنى لائمى فى الهوى * صادفت حبى فى مكان رحيب
ولم أفه بالعتب عند اللقا * ورب عتب فيه برء الكئيب
فقال ما هذا السكوت الذى * صدك عن هذا الجواب المصيب
فقلت يا من قد غدا جاهلا * بحال أهل العشق كالمستريب
علامة العاشق فى عشقه * سكوته عند لقاء الحبيب

فلما فرغ من شعره أحضرت السيدة مريم دواة وقرطاسا وكتبت فيه بعد البسملة الشريفة (أما بعد) فسلام الله عليك ورحمته وبركاته وأخبرك أن الجارية مريم تسلم عليك * وهى كثيرة الشوق اليك * وهذه مراسلتها اليك * فساعة وقوع هذه الورقة بين يديك * انهض من وقتك وساعتك واهتم بما تريده منك غاية الاهتمام والحذر كل الحذر من المخالفة ومن أن تنام * فاذا مضى ثلث الليل الاول فان تلك الساعة من أسعد الاوقات فلا يكون لك فيها شغل الا شد الحصانين وتخرج بهما خارج المدينة وكل من قال أين أنت ذاهب فقل أنا ذاهب أسيرهما فاذا قلت ذلك لا يمنعك أحد فان أهل هذه المدينة واثقون بقفل جميع الابواب وانتظرنى حتى أجيء اليك ثم ان السيدة مريم لفت الورقة فى منديل حرير ورمتها الى نور الدين من الشباك فأخذها وقرأها وفهم

مافيها وعرف انه بخط السيدة مريم فقبلها ووضعها بين عينيه وتذكر ما حصل له معها من طيب الوصال فاسال دمع العينين وانشد هذين البيتين

أتاني كتاب منكم جنح ليلة * فهيجني شوقا اليكم وأبراني
وذكرني أنسا مضى بوصالكم * فسبحان رب بالتفرق أبلاني

ثم ان نور الدين لما جن عليه الليل اشتغل باصلاح الحصانين وصبر حتى مضى من الليل ثلثه الاول ثم قام من وقته وساعته الى الحصانين ووضع عليهما سرجين من أحسن السروج وخرج من باب الاصطبل وقفل الباب وسار بهما الى باب المدينة وجلس ينتظر السيدة مريم هذا ما كان من أمر نور الدين (وأما) ما كان من أمر الملكة مريم فانها ذهبت من وقتها وساعتها الى المجلس الذي هو معد لها في ذلك القصر فوجدت الوزير الاعور جالسا في ذلك المجلس متكئا على مخدة من ريش النعام وهو مستحي أن يمد يده اليها أو يخاطبها فلما رأته ناجت ربها في قلبها وقالت اللهم لا تبلغه مني أربا ولا تحكم علي بالنجاسة بعد الطهارة ثم أقبلت عليه وأظهرت له المودة وجلست في جانبه ولاطفته وقالت له يا سيدي ما هذا الاعراض عنا أهل هو منك تيه ودلال علينا ولكن صاحب المثل السائر يقول اذا بار السلام سلمت القعود على القيام فان كنت يا سيدي الوزير ما تجيء عندي وتخاطبني أجيء أنا عندك وأخاطبك فقال لها الوزير الفضل والجميل لك يا ملكة الديار الافرنجية والبلاد الرومية وهل أنا الا من بعض خدامك وأقل غلمانك وانما أنا مستحي أن أقدم على مخاطبتك الفخيمة أيتها الملكة العظيمة ووجهي منك في الارض فقالت له دعنا من هذا الكلام وأتنا بالمأكل والمشرب وهي أثنا أباريق المدام فعند ذلك صاح الوزير على جواريه وخدمه وأمرهم باحضار المأكل والمشرب فقدموا له سفرة فيها ما درج وطار وسبح في البحار من سمان وأفراخ الحمام ورضيع الضان وأوز سمين ودجاج محمر ومن غالب أنواع الالوان فمدت السيدة مريم يدها الى السفرة وأكلت وصارت تلقم الوزير وتقبله في فمه وما زالا يأكلان حتى اكتفيا من الاكل ثم غسلا أيديهما وبعد ذلك رفعت الخدام سفرة الطعام وأحضروا سفرة المدام فصارت مريم تملأ وتشرب وتسقيه وزادت في تعليل مزاجه أكثر مما كان يكفيه حتى كاد أن يطير قلبه من الفرح واتسع صدره وانشرح فلما غاب عقله عن الصواب وتمكن منه الشراب مدت يدها الى جيبها وأخرجت منه قرصا من البنج البكر المغربي الذي اذا شم منه الفيل أدنى رائحة نام جملة من الايام وكانت أعدته

لهذه الساعة ثم غافلت الوزير وفركته في القدح وملأته واعطته اياه فطار عقله من
الفرح وما صدق انها تناوله اياه فتناول القدح وشربه فاستقر في جوفه حتى خر صريعا
على الارض في الحال فقامت السيدة مريم على قدميها وعمدت الى خرجين كبيرين
وملأتهما مما خف حمله وغلا ثمنه من الجواهر واليواقيت واصناف المعادن الثمينة ثم
حملت معها شيأ من المأكل والمشرب ولبست آلة الحرب والكفاح * من سائر انواع
السلاح واخذت معها لنور الدين ما يسره من الملابس الملوكية الفاخرة واهبة السلاح
الفاخرة ثم انها حملت الخرجين على اكتافها فرحة بما اصابته من حصول الارب
والسير صحبة محبوبها الى بلاد العرب * وكانت ذات قوة وشجاعة وتوجهت الى نور
الدين هذا ما كان من امر مريم (واما) ما كان من امر نور الدين العاشق الحزين
فانه قعد على باب المدينة ينتظرها ومقاود الحصانين في يديه فارسل الله عز وجل عليه
النوم فنام وسبحان من لا ينام وكانت ملوك الجزائر في ذلك الزمان قد بذلوا المال رشوة
على سرقة هذين الحصانين او احدهما وكان في تلك الايام عبد اسود تربى بالجزائر
يعرف بسرقة الخيل فصارت ملوك الافرنج يرشونه بمال كثير لاجل ان يسرق
الحصانين ووعدوه انه ان سرق الحصانين يعطوه جائزة كاملة ويخلعوا عليه خلعا سنية
وقد كان لذلك العبد زمان طويل يدور في مدينة افرنجة وهو مختف فيها فلم يقدر على
اخذ الحصانين وهما عند الملك فلما وهبهما للوزير الاعور ونقلهما الى الاصطبل فرح
العبد فرحا شديدا وطمع في اخذهما وقال وحق المسيح الآن اطمأننت على سرقتهما
ثم ان العبد خرج في تلك الليلة قاصدا ذلك الاصطبل ليسرق الحصانين فبينما هو ماش
اذ لاحت منه التفاتة فرأى شخصا نائما وهو نور الدين ومقاود الحصانين في يده فعرفهما
وتقدم اليه ونزع المقاود من رؤسهما ومشى قليلا واراد ان يركب واحدا ويسوق الآخر
قدامه واذا بالسيدة مريم قد اقبلت وهي حاملة الخرجين على كتفها فظنت ان العبد
نور الدين فناولته احد الخرجين فوضعه على الحصان ثم ناولته الثاني فوضعه على
الحصان الآخر وهو ساكت وهي تظن انه نور الدين ثم انها خرجت من باب المدينة
والعبد ساكت فقالت له يا سيدي نور الدين ما لك ساكت فالتفت العبد اليها وهو
مغضب وقال لها اي شيء تقولين يا جارية فسمعت بربرة العبد فعرفت انها غير لغة نور
الدين فرفعت رأسها اليه ونظرته فوجدت له مناخير كالابريق فلما نظرته صار الضياء
في وجهها ظلاما فقالت له من تكون يا شيخ بني حام وما اسمك بين الانام فقال لها

بابنت الشام أنا اسمي مسعود سراق الخيل والناس نيام فاردت عليه شيئ من الكلام بل جردت من وقتها السيف وضربته على عاتقه فطلع يلمع من علائقه فوقع صريعا على الارض يختبط في دمه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فعند ذلك أخذت السيدة مريم الحصانين وركبت واحدا منهما وقبضت على الآخر بيدها ورجعت على عقبها تفتش على نور الدين فلقيته راقدا في المكان الذي وعدته بالاجتماع فيه والمقاود في يده وهو نائم يخط في نومه ولم يعرف يديه من رجليه فنزلت عن ظهر الحصان ولكزته بيدها فانتبه من نومه مرعوبا وقال لها يا سيدتي الحمد لله على مجيئك سالمة فقالت له قم اركب هذا الحصان وانت ساكت فقام وركب الحصان وركبت السيدة مريم الحصان الثاني وخرجا من المدينة وسارا قليلا وبعد ذلك التفتت مريم الى نور الدين وقالت له اما قلت لك لا تنم فانه لا أفلح من ينام فقال يا سيدتي انا ما نمت الا من برد فؤادي بميعادك وأي شيء جرى يا سيدتي فاخبرته بحكاية العبد من المبتدا الى المنتهى فقال لها نور الدين الحمد لله على السلامة ثم جدا في اسراع السير وقد سلما أمرهما الى اللطيف الخبير وصارا يتحدثان حتى وصلا الى العبد الذي قتلته السيدة مريم فرآه مرميا في التراب كانه عفريت فقالت مريم لنور الدين انزل جرده من ثيابه وخذ سلاحه فقال لها يا سيدتي والله انا لا اقدر أن انزل عن ظهر الحصان ولا أقف عنده ولا أتقرب منه وتعجب نور الدين من خلقته وشكر السيدة مريم على فعلها وتعجب من شجاعتها وقوة قلبها ثم سارا ولم يزالا سائرين سيرا حثيثا بقية الليل الى أن أصبح الصباح وأضاء بنوره ولاح وانتشرت الشمس على الروابي والبطاح فوصلا الى مرج أفيح فيه الغزلان تمرح وقد اخضرت منه الجوانب وتشكلت فيه الاثمار من كل جانب وأزهاره كبطون الحيات والطيور على غصون أشجاره عاكفات يغردن بحلاوة الاصوات باختلاف اللغات وجداوله تجري مختلفة الصفات كما قال فيه الشاعر وأجاد ووفى بالمراد

وقانا لفحة الرمضاء واد * وقاه مضاعف النبت العميم
نزلنا دوحة فحنا علينا * حنو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظما زلالا * ألذ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنى واجهتنا * فيحجبها ويأذن للنسيم
يروع حصاه حالية العذارى * فتلمس جانب العقد النظيم

(وكما قال الآخر)

واذا ترنم طيره وغديره * يشتاقه الولهان فى الاسحار
فكأنه الفردوس فى أفنانه * ظل وفاكهة وماء جارى

فعند ذلك نزلت السيدة مريم هى ونور الدين ليستريحا فى ذلك الوادى فلما نزلا منه أكلا
من أثماره وشربا من أنهاره واطلقا الحصانين يأكلان من المرعى فصارا يأكلان
ويشربان من ذلك الوادى وجلس نور الدين هو ومريم يتحدثان ويتذاكران حكايتهما
وما جرى لهما وكل منهما يشكو لصاحبه ما لاقاه من ألم الفراق وما قاساه من البعد
والاشتياق فبينما هما كذلك واذا بغبار قد ثار حتى سد الاقطار وسمعا صهيل الخيل
وقعقعة السلاح وكان السبب فى ذلك ان الملك لما زوج ابنته للوزير ودخل عليها فى تلك
الليلة وأصبح الصباح وأراد الملك أن يصبح عليها كما جرت به العادة عند الملوك فى
بناتهم فقام وأخذ أقمشة من الحرير ونثر الذهب والفضة لتخاطفها الخدمة والمواشط ولم
يزل الملك يتمشى هو وبعض الغلمان الى أن وصلا الى القصر الجديد وطلع فيه فوجد
الوزير مرميا على الفراش لم يعرف رأسه من رجليه فالتفت الملك فى القصر يمينا وشمالا
فلم ير ابنته فيه فتكدر حاله واشتغل باله وأمر باحضار الماء السخن والخل البكر
والكندر فلما أحضروا له ذلك خلطها ببعضها وسعط الوزير بها ثم هزه فخرج البنج
من جوفه كقطع الجبن ثم ان الملك سعط الوزير بذلك ثانى مرة فانتبه فسأله عن حاله
وعن حال ابنته مريم فقال له أيها الملك الاعظم لا علم لى بها غير أنها سقتنى قدحا من الخمر
بيدها فى ذلك الوقت ما عرفت روحى الا فى هذه الساعة ولا أعلم ما كان من أمرها فلما
سمع الملك كلام الوزير صار الضياء فى وجهه ظلاما وجرد السيف من قرابه وضرب به
الوزير على رأسه فخرج يلمع من أضراسه ثم ان الملك أرسل من وقته وساعته الى الغلمان
والسياس فلما حضروا طلب منهم الحصانين فقالوا له أيها الملك ان الحصانين فقدا فى
هذه الليلة وكبيرنا فقد معهما أيضا فاننا لما أصبحنا وجدنا الابواب كلها مفتحة فقال الملك
وحق دينى وما يعتقده يقينى ما أخذ الحصانين الا ابنتى هى والاسير الذى كان يخدم
الكنيسة وكان قد أخذها فى المرة الاولى وعرفته حق المعرفة ولم يخلصه من يدى الا هذا
الكلب الوزير الاعور وقد جوزى بفعله فلا رحم الله عظامه ثم ان الملك قام من وقته
وساعته ودعا باولاده الثلاثة وكانوا ابطالا اشجعا وكان كل واحد منهم يقوم بالف فارس فى
حومة الميدان ومقام الضرب والطعان فصاح الملك عليهم وأمرهم بالركوب فركبوا

والملك بجملتهم مع خواص بطارقته وأرباب دولته وأكابرهم وساروا يتبعون آثارهما فلحقوهما في ذلك الوادي فلما رأتهم مريم نهضت وركبت جوادها وتقلدت بسيفها وحملت آلة سلاحها وقالت لنور الدين ما حالك وكيف قلبك في القتال والحرب والنزال فقال لها ان ثباتي في النزال مثل ثبات الوتد في النخال وأنشد يقول

يامريم اطرحي أليم عتابي * لاتقصدي قتلي وطول عذابي
من أين لي اني أكون محاربا * اني لافزع من نعيق غرابي
واذا نظرت الفار أفزع خيفة * وأبول من خوفي على أثوابي
أنا لا أحب الطعن الا خلوة * والكس يعرف سطوة الازباب
هذا هو الرأي السديد وما يرى * من دون هذا الرأي غير صواب

فلما سمعت مريم من نور الدين هذا الكلام والشعر والنظام أظهرت له الضحك والابتسام وقالت ياسيدي نور الدين الهمام الزم مكانك وأنا أكفيك شرهم ولو كانوا عدد الرمل ثم انها قامت من وقتها وساعتها وتهيأت للقتال وأطلقت من يدها طرف العنان وأدارت الرمح من جهة السنان فخرج ذلك الحصان من تحتها كانه الريح الهبوب أو الماء اذا اندفق من ضيق الانبوب وقد كانت مريم أشجع أهل زمانها وأفرس أهل عصرها وأوانها الان أباها علمها الركوب على ظهور الخيل وخوض بحار الحرب في ظلام الليل وقالت لنور الدين اركب جوادك وكن خلف ظهري واذا انهزمنا فاحرص على نفسك من الوقوع فان جوادك ما يلحقه لاحق فلما نظر الملك الى ابنته مريم عرفها غاية المعرفة والتفت الى ولده الاكبر وقال له يابرطوط ياملقب برأس القلوط ان هذه أختك مريم لاشك فيها ولاريب قد حملت وطلبت حربنا وقتالنا فابرز اليها واحمل اليها ولكن وحق المسيح والدين الصحيح انك ان ظفرت بها لاتقتلها حتى تعرض عليها دين النصارى فان رجعت الى دينها القديم فارجع بها اسيرة وان لم ترجع اليه فاقتلها أقبح قتلة ومثل بها أشنع مثلة وكذلك هذا الملعون الذي معها مثل به أقبح مثلة فقال له برطوط السمع والطاعة ثم برز الى أخته مريم من وقته وساعته وحمل عليها فلاقته وحملت عليه ودنت منه وتقربت اليه فقال لها برطوط يامريم أما يكفي ما جرى منك حيث تركت دين الاباء والاجداد واتبعت دين السواحين في البلاد يعني دين الاسلام ثم قال وحق المسيح والدين الصحيح ان لم ترجعي الى دين آبائك وأجدادك من الملوك وتسلكي فيه أحسن السلوك والا أقتلك أشر قتلة وأمثل بك

أقبح مثله فضحكت مريم من كلام أخيها برطوط وقالت هيهات أن يعود مافات أو يعيش من مات بل أجرعك أشد الحسرات أنا والله لست براجعة عن دين محمد بن عبد الله الذي عم نفعه وهداه فانه هو الدين الحق فلا أترك الهدى ولو سقيت كؤس الردى فلما سمع الملعون برطوط من أخته هذا الكلام صار الضياء في وجهه كالظلام وعظم ذلك عليه وكبر لديه فالتهب بينهما القتال وغاص الاثنان في الاودية العراض الطوال وصبرا على الشدائد والاهوال وشخصت لهما الابصار فاخذا الانبهار ثم تجاولا مليا واعتركا طويلا وصار برطوط كلما يفتح لاخته مريم بابا من الحرب تبطله عليه وتسده بحسن صناعتها وقوة براعتها وشدة معرفتها وفروسيتها ولم يكن لنور الدين شغل الا التضرع والابتهال لانه لا طاقة له في النزال ولا مقاومة الابطال في الحرب والقتال ولم تزل السيدة مريم وأخوها برطوط على تلك الحالة حتى انعقد على رؤسهما الغبار وغاب الفارسان عن الابصار ولم تزل مريم تحاوله وتجاوله وتسد عليه طرقه حتى كل من ألم الحرب وبطلت همته واضمحل عزمه وضعفت قوته فضربته بالسيف على عاتقه فخرج يلمع من علائقه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار ثم ان مريم جالت في حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وطلبت البراز وسالت الانجاز وقالت هل من مقاتل هل من مناجز لا يبرز لي اليوم كسلان ولا عاجز لا يبرز لي الا أبطال أعداء الدين لاسقيهم كأس العذاب المهين يا عبدة الاوثان وذوي الكفر والطغيان هذا يوم تبيض فيه وجوه أهل الايمان وتسود وجوه أهل الكفر بالرحمن فلما رأى الملك ولده الكبير قد قتل لطم على وجهه وشق أثوابه وقال آه من فرقة الانسان أحبابه وبعد ذلك صاح على ولده الاوسط وقال يا برطوس يا ماعب بخرء السوس ابرز يا ولدي بسرعة الى قتال أختك مريم وخذ منها ثار أخيك برطوط وائتني بها أسيرة ذليلة حقيرة فقال له يا أبت السمع والطاعة ثم انه برز لاخته مريم وحمل عليها فلاقته وحملت عليه وتقدمت بكليتها اليه وتقاتلت هي واياه قتالا شديدا أشد من القتال الاول فرأى أخوها الثاني نفسه عاجزا عن قتالها من عظم ما نظر من قوة شجاعتها وشدة نزالها فاراد الفرار والهرب فلم يمكنه ذلك من عظم بأسها لانه كلما ركن الى الفرار تقربت منه ولاصقته وضايقته ثم ضربته بالسيف على رقبته فخرج يلمع من لبته والحقته باخيه وبعد ذلك جالت في حومة الميدان وموقف الحرب والطعان وقالت أين الفرسان والشجعان أين الوزير

الاعور الاعرج صاحب الدين الاعوج فعند ذلك صاح أبوها بقلب جريح وطرف من الدمع قريح وقال انها قتلت ولدى الاوسط وحق المسيح ثم انه صاح على ولده الصغير وقال له يا فتيان يا اقبح الصبيان اخرج يا ولدى الى قتال أختك وخذ منها ثار أخويك وصادمها مالك أو عليك وان ظفرت بها فاقتلها أقبح قتله ومثل بها أقبح مثله فعند ذلك برز لها أخوها الصغير وحمل عليها فلاقته بهمتها وبراعتها وحملت عليه بحسن صناعتها وقوة شجاعتها ومعرفتها بانواع ملاعب الحرب وفروسيتها وقالت له يا عدو الله وعدو المسلمين لالحقنك باخويك الطاغين الباغين الى النار وبئس مثوى الكافرين ثم انها جذبت سيفها من غمده وضربته فقطعت عنقه وذراعيه وقد ألحقته باخويه وعجل الله بروحه الى النار وبئس القرار فلما رأى البطارقة والفرسان الذين كانوا راكبين مع أبيها أولاد الملك الثلاثة قد قتلوا وكانوا أشجع أهل زمانهم وقع فى قلوبهم الرعب من السيدة مريم وأدهشتهم الهيبة ونكسوا رؤسهم الى الارض وأيقنوا بالهلاك والدمار والذل والبوار واحرقت قلوبهم من الغيظ بلهيب النار فولوا الادبار وركنوا الى الفرار فلما نظر الملك الى أولاده وقد قتلوا والى عساكره وقد انهزموا أخذته الحيرة والانبهار واحترق قلبه بلهيب النار وقال فى نفسه ان السيدة مريم قد استقلت بنا وان خاطرت بنفسى وبرزت اليها وحدى ربما غلبت على وقهرتنى فتقتلنى أشنع قتله وتمثل بى أقبح مثله كما قتلت اخوتها لانها لم يبق لها فينا رجاء ولا لنا فى رجوعها طمع والرأى السديد ان احفظ حرمتى وارجع الى مدينتى واقعد على تخت مملكتى لئلا يذهب من يدى وأبقى فاقدا له كما فقدت أولادى الذين كانوا ساعدى وعضدى ثم ان الملك أرخى عنان فرسه ورجع الى مدينته ومحل مملكته فلما استقر فى قصره انطلقت فى قلبه النار من أجل قتل أولاده الثلاثة وانهزام عسكره وهتك حرمته فما استقر نصف ساعة حتى طلب أرباب دولته وكبراء مملكته وشكا اليهم فعل ابنته مريم معه من قتلها اخوتها وهم أولاده الثلاثة وما لاقاه من القهر والحزن واستشارهم فاشار واعليه كلهم أن يكتب كتابا الى خليفة الله فى أرضه أمير المؤمنين هرون الرشيد ويعلمه بهذه القضية فكتب الى الرشيد مكتوبا مضمونه بعد السلام على أمير المؤمنين ان لنا بنتا اسمها مريم الزنارية قد أفسدها علينا أسير من أسراء المسلمين اسمه نور الدين على ابن التاجر تاج الدين المصرى وأخذها بالليل وخرج بها الى ناحية بلاده وأنا أسأل فضل مولانا أمير المؤمنين أن يكتب الى سائر بلاد المسلمين

يقتضى لها وارسالها البنا مع رسول أمين من خدم حضرة أمير المؤمنين ومن جملة مضمون ذلك الكتاب أننا نجعل لكم فى نظير مساعدتكم لنا على هذا الامر نصف مدينة رومة الكبرى لتبنوا فيها مساجد للمسلمين ويحمل اليكم خراجها وبعد أن كتب الكتاب برأى أهل مملكته وكبراء دولته طواه ودعا بوزيره الذى جعله وزيرا مكان الوزير الاعور وختمه له وأكابر دولته بعد أن وضعوا خطوط أيديهم فيه ثم قال لوزيره ان أتيت بها فلك عندى أقطاع أميرين وأخلع عليك خلعة بطرازين ثم ناوله الكتاب وأمره أن يسافر الى مدينة بغداد دار السلام ويوصل الكتاب الى أمير المؤمنين من يده الى يده فسافر الوزير بالمكتوب وسار يقطع الاودية والقفار حتى وصل الى مدينة بغداد فلما دخلها مكث فيها ثلاثة أيام حتى استقر واستراح ثم سأل عن قصر أمير المؤمنين هرون الرشيد فدلوه عليه فلما وصل اليه طلب الاذن من أمير المؤمنين فى الدخول عليه فاذن له فى ذلك فدخل عليه وقبل الارض بين يديه وناوله الكتاب الذى من ملك افرنجة وصحبته من الهدايا والتحف النفيسة العجيبة ما يليق بامير المؤمنين فلما فتح الخليفة المكتوب قرأه وفهم مضمونه أمر وزراءه من وقته أن يكتبوا المكاتيب الى سائر بلاد المسلمين ففعلوا ذلك وبينوا فى المكاتيب صفة مريم وصفة نور الدين واتهما هاربان فكل من وجدهما فليقبض عليهما ويرسلهما الى أمير المؤمنين وحذروهم من أن يعطوا فى ذلك امهالا أو اهمالا أو غفلة ثم ختمت الكتب وأرسلت مع السعاة الى العمال فبادروا فى امتثال الامر وساروا يفتشون فى سائر البلاد على من يكون بهذه الصفة هذا ما كان من أمر هؤلاء الملوك واتباعهم وأما ما كان من أمر نور الدين المصرى ومريم الزنارية بنت ملك افرنجة فانهما ركبا بعد انهزام الملك وعساكره وسارا الى بلاد الشام وقد ستر عليهما الستار فوصلا الى مدينة دمشق وكانت الطلائع التى أرسلها الخليفة قد سبقتهما الى دمشق بيوم فعلم أمير دمشق أنه مأمور بالقبض عليهما متى وجدهما ليحضرهما بين يدى الخليفة فلما كان يوم دخولهما الى دمشق أقبل عليهما الجواسيس فسألوهما عن اسميهما فاخبراهم بالصحيح وقصا عليهم قصتهما وجميع ما جرى عليهما فعرفوهما وأخذوهما وساروا بهما الى أمير دمشق فارسلهما الى الخليفة بمدينة بغداد دار السلام فلما وصلوا اليها استأذنوا فى الدخول على أمير المؤمنين هرون الرشيد فاذن لهم فلما دخلوا عليه قبلوا الارض بين يديه وقالوا له يا امير المؤمنين ان هذه مريم الزنارية بنت ملك افرنجة وهذا نور الدين المصرى الاسير

الذى أفسدها على أبيها وسرقها من بلادها وهرب بها الى دمشق وجدناهما وقت
دخولهما دمشق وسألناهما عن اسمهما فما أجابونا بالصحيح فعند ذلك أتيناهما
وأحضرناهما بين يديك فنظر الخليفة الى مريم فرآها رشيقة القوام فصيحة الكلام
مليحة أهل زمانها فريدة عصرها وأوانها حلوة اللسان ثابتة الجنان فلما وصلت اليه
قبلت الارض بين يديه ودعت له بدوام العز والنعم وزوال البؤس والنقم فتعجب
الخليفة حسن قوامها وعذوبة ألفاظها وسرعة جوابها فقال لها هل أنت مريم الزنارية
بنت ملك افرنجة قالت نعم يا أمير المؤمنين وامام الموحدين وحامى حوزة الدين وابن
عم سيد المرسلين فعند ذلك التفت الخليفة فرأى علياً نور الدين المصرى شاباً مليحاً
حسن الشكل كأنه البدر المنير فى ليلة تمامه فقال له الخليفة هل أنت على نور الدين
الاسير ابن التاجر تاج الدين المصرى قال نعم يا أمير المؤمنين وعمدة القاصدين فقال
الخليفة كيف أخذت هذه الصبية من مملكة أبيها وهربت بها فصار نور الدين يحدث
الخليفة بجميع ما جرى له من أول الامر الى آخره فلما فرغ من حديثه تعجب الخليفة
من ذلك غاية العجب وأخذه من العجب فرط الطرب وقال ما أكثر ما تقاسيه الرجال
ثم انه التفت الى السيدة مريم وقال لها يا مريم اعلمى أن والدك ملك افرنجة قد كاتبنا فى
شأنك فما تقولين قالت يا خليفة الله فى أرضه باقامة سنة نبيه وفرضه خلد الله عليك
النعم وأجارك من البؤس والنقم انى قد دخلت فى دين الاسلام لانه هو الدين القويم
الصحيح وتركت ملة الكفرة الذين يكذبون على المسيح وقد صرت مؤمنة بالله الكريم
ومصدقة بما جاء به رسوله الرحيم أعبد الله سبحانه وتعالى وأوحده واسجد خاضعة اليه
وأمجده وأنا قائلة بين يدى الخليفة أشهد أن لا اله الا الله وأشهد ان محمداً رسول الله
أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون فهل فى وسعك
يا أمير المؤمنين أن تقبل كتاب ملك الملحدين وترسلنى الى بلاد الكافرين الذين
يشركون بالملك العلام ويعظمون الصليب ويعبدون الاصنام ويعتقدون ألوهية عيسى
وهو مخلوق بين الانام فان فعلت بى ذلك يا خليفة الله أتعلق بأذيالك يوم العرض على
الله وأشكوك الى ابن عمك رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم لا ينفع مال ولا بنون الا من
أتى الله بقلب سليم فقال أمير المؤمنين يا مريم معاذ الله ان أفعل ذلك أبداً كيف أرد امرأة
مسلمة موحدة بالله ومصدقة برسوله الى ما نهى الله ورسوله عنه فقالت مريم اشهد ان
لا اله الا الله واشهد أن محمداً رسول الله فقال لها الخليفة يا مريم بارك الله فيك وزادك

هداية الى الاسلام وحيث كنت مسلمة موحدة بالله فقد صار لك علينا حق واجب وهو انى لا افرط فيك ابدا ولو بذل لى من اجلك ملء الارض جواهر وذهبا فطيبى نفسا وقرى عينا واشرحى صدرا ولا يكن خاطرك الا طيبا فهل رضيت ان يكون هذا الشاب على المصرى لك بعلا وتكونى انت له اهلا فقالت يا امير المؤمنين كيف لا ارضى ان يكون لى بعلا وقد اشترانى بماله واحسن الى غاية الاحسان ومن تمام احسانه انه خاطر بروحه من اجلى مرات عديدة فزوجها الخليفة هارون الرشيد وامهرها من عنده بعد ان احضر القاضى والشهود واكابر دولته وعقد عليها النور الدين وكان يوما مشهودا ثم بعد ذلك التفت امير المؤمنين الى وزير ملك افرنجة وكان حاضرا فى تلك الساعة وقال له هل سمعت كلامها كيف ارسلها الى ابيها الكافر الطاغى وهى مسلمة وربما ساءها واغلظ عليها خصوصا وقد قتلت اولاده فاتحمل انا ذنبها يوم القيامة وقد قال الله تعالى ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا فارجع الى ملكك وقل له ارجع عن هذا الامر ولا تطمع فيه وكان ذلك الوزير احمق فقال للخليفة يا امير المؤمنين وحق المسيح والدين الصحيح لا يمكننى الرجوع بدون مريم ولو كانت مسلمة لانى لو رجعت الى ابيها بدونها قتلنى فقال الخليفة خذوا هذا الملعون واقتلوه وانشد هذا البيت

هذا جزاء من عصى * من فوقه وعصا نبيه

ثم امر بضرب عنق ذلك الوزير فقالت السيدة مريم يا امير المؤمنين لا تنجس سيفك بدم هذا الملعون ثم جردت سيفها وضربته به فاطاحت راسه عن جثته فذهب الى دار البوار وبئس القرار فتعجب الخليفة من صلابة ساعدها وقوة قلبها ثم خلع على نور الدين خلعة سنية وافرد لهما مكانا فى قصره ورتب لهما المرتبات مما يحتاجانه وامر ان ينقل اليهما جميع ما يطلبانه من الملابس والمفارش والاوانى النفيسة واقاما فى بغداد مدة من الزمان وهما فى غاية اللذة والسرور وبعد ذلك اشتاق نور الدين الى امه وابيه فعرض الامر على الخليفة وطلب منه اذنا فى التوجه الى بلاده لزيارة والديه واقاربه ودعا بمريم واحضرها بين يديه فاجازه بالتوجه وزوده من الهدايا والتحف المثمنة واوصاهما ببعضهما ثم امر بالمكاتيب الى امراء مصر المحروسة وعلمائها وكبرائها بالوصية على نور الدين هو واهله وعياله واكرمهم غاية الاكرام فلما وصلت الاخبار الى مصر المحروسة فرح التاجر تاج الدين بعود ولده نور الدين وكذلك امه فرحت بذلك غاية الفرح وخرج لملاقاته الكبراء من الامراء وارباب الدولة والرؤساء على حسب

وصية الخليفة فلاقوا نور الدين وكان يوما مشهودا للعالمين اجتمع فيه المحب والمحبوب واتصل الطالب بالمطلوب وصارت تعمل لهم الضيافات فى كل يوم على كل واحد من الامراء والاحباب الظرفاء وفرحوا بهم الفرح الزائد وأكرموهم الاكرام المتصاعد ولما اجتمع نور الدين بوالديه فرحا به غاية الفرح وزال عنهما الهم والترح وكذلك فرحا بالسيدة مريم وأكرماها غاية الاكرام ووصلت اليهم الهدايا والتحف من سائر الامراء والتجار الفخام وصاروا كل يوم فى انشراح جديد وسرور أعظم من سرور العيد وأقاموا فى فرح ولذات ونعم جزيلة مطربات وأكل وشرب وسر ور مدة من الزمان الى أن أتاهم هازم اللذات ومفرق الجماعات فسبحان الحى الذى لا يموت وبيده مقاليد الملك والملكوت

بحمد الله قد تم طبع هذه القصة العجيبة البهية المشتملة على
ما جرى لعلى نور الدين المصرى مع جاريته مريم
الزنارية وذلك بالمطبعة العامرة الشرفية
الكائن محل ادارتها بشارع الخرنفش
بمصر المحمية سنة ١٣١٤ هجريه
على صاحبها أفضل
الصلاة وأزكى
التحيه